البوابة

رئيس مجلس الإدارة والتحرير
عبد الرحيم على

رئيس التحرير
داليا عبد الرحيم

الخميس ٢٤ أغسطس ٢٠٢٣ - ٨ صفر ١٤٤٥ - السنة التاسعة - العدد ٣١٨٣ الإصدار الثانى

٨ صفحات - ٤٧٥ قرشًا

Thursday 24 August 2023 No. 3183

الزعيمان

تحية إلى ذكرى سعد زغلول ومصطفى النحاس

«العملاق» و«جمهورية زفتى» و«طائر فى العنق» و«مصر الجديدة» و«أهل الهوى».. أبرز المسلسلات التى قدمت الزعيمين

«سعد» و«النحاس» فى عيون الفن

مسلسل «الملك فاروق» قدم الزعيمين سعد زغلول ومصطفى باشا النحاس

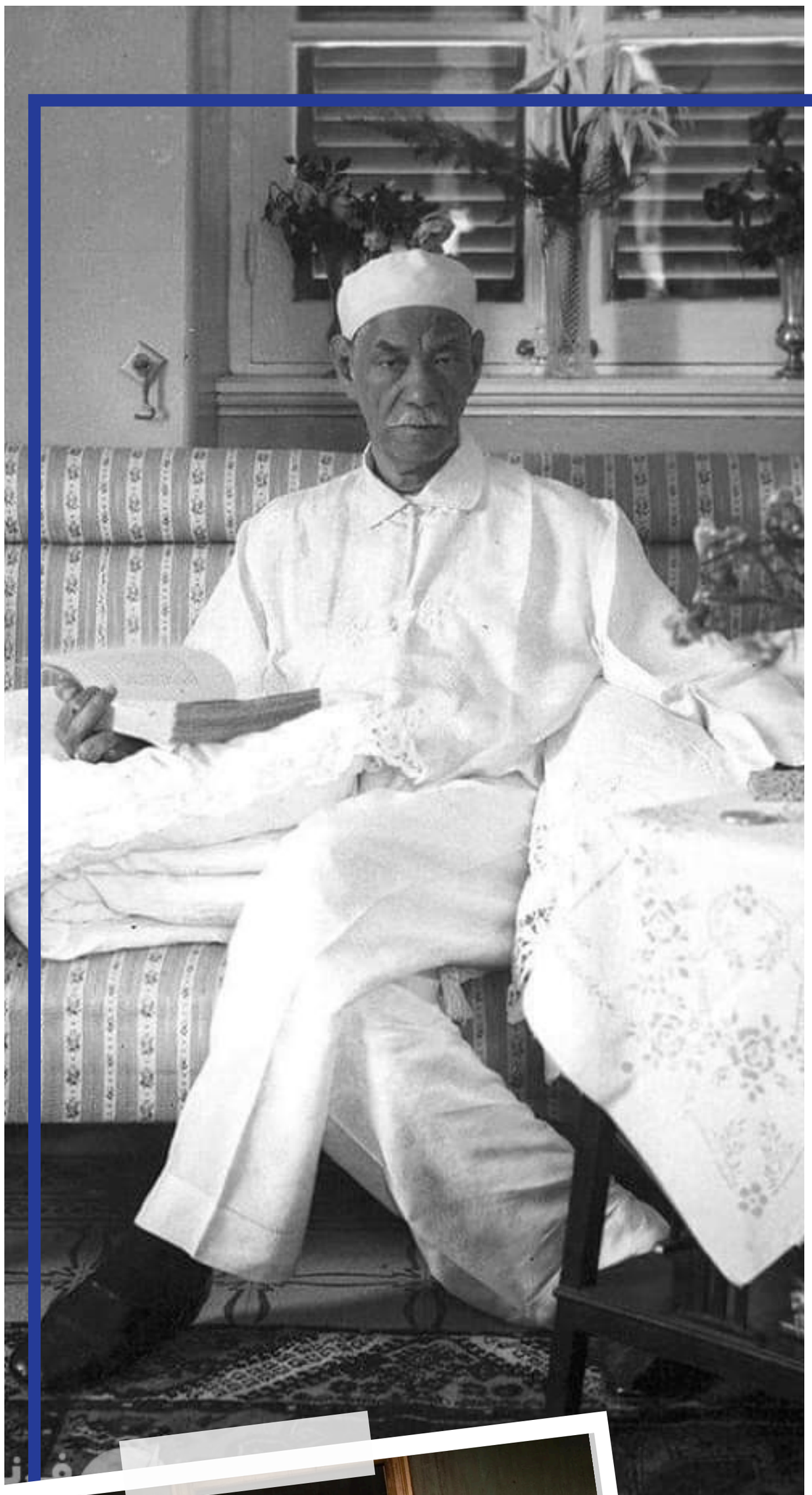

كتب- أحمد عمار

يعتبر يوم 23 أغسطس أحد أهم الأيام فى التاريخ المصرى، فهو ذكرى رحيل زعيمين تاريخيين على مدار التاريخ المصرى المناضل، فقد رحل فى هذا اليوم الزعيم سعد زغلول ومصطفى باشا النحاس أحد أبز السياسيين المصريين، وبالتأمل للتاريخ المصرى تجد سعد زغلول منارة مضيئة خلال مشوار نضالى كبير، بداية من المشاركة فى ثورة عرابى، حتى ثورة 1919، أما مصطفى النحاس فكان على خطى زغلول وانضم لحزب الوفد تحت أيادى وقيادة سعد باشا.

وظل فى رحاب الزعيم سعد زغلول حتى إن يوم الوفاة كان هو نفس يوم رحيل سعد زغلول، حيث رحل الاثنان فى نفس تاريخ اليوم رغم اختلاف السنوات، وكأن تتبع الرحلة فى مشوار الحياة لم يكف، رحلا تاركان صفحات من التاريخ تكتب عنهما وعن رحلتهما فى المقاومة والنضال، ولأن الفن انعكاس للواقع وخير توثيق وأرشفة للتاريخ، نرصد لكم أبرز أعمال فنية قدمت الثنائى التاريخى.

أعمال فنية قدمت الزعيم سعد زغلول والنحاس باشا

مسلسل العملاق

إنتاج عام 1979، مسلسل سيرة ذاتية عن الكاتب والأديب الكبير عباس محمود العقاد، وقدم من خلال العمل تجسيدا لشخصية سعد زغلول، حيث كانت تربطهما علاقة وكان العقاد يدعم ويناصر سعد زغلول، حتى أنه كتب عنه كتاب "سعد زغلول زعيم الثورة"، وقدم شخصية الزعيم الفنان الكبير حمدى غيث، وقدم شخصية مصطفى النحاس باشا الفنان مصطفى الخضرى.

المسلسل بطولة محمود مرسى، شيرين، شهيرة، سميرة محسن، صفاء أبو السعود، هناء ثروت والإخراج يحيى العلمى.

مسلسل "جمهورية زفتى"

إنتاج عام 1997، تدور أحداثه حول مدينة فى إحدى محافظات مصر تدعى زفتى، بعد ثورة 1919 تعلن تلك المدينة استقلالها عن دولة مصر، وتأسيس جمهورية مستقلة تدعى جمهورية زفتى، وجاء ذلك القرار بسبب المعاناة التى لحقت بأهلها من الاحتلال ثم الباشاوات والإقطاعيين، جسد الفنان حمدى غيث شخصية الزعيم سعد زغلول فى أحداث المسلسل.

المسلسل بطولة ممدوح عبد العليم، صابرين، محمد منير، تيسير فهمى، حسن حسنى، عبدالرحمن أبو زهرة، تأليف يسرى الجندى والإخراج إسماعيل عبدالحافظ.

مسلسل "طائر فى العنق"

إنتاج عام 1998، والمسلسل يقدم فترة هامة فى التاريخ المصرى، حيث يبدأ بفترة الاضطرابات ومحاولة اغتيال الزعيم سعد زغلول، ويتطرق أيضاً للصراعات والانقسامات الحزبية.

قدم شخصية سعد زغلول الفنان حمدى غيث، وذلك للمرة الثانية بسبب التشابه الكبير فى الشكل الخارجى.

المسلسل بطولة حمدى غيث، بوسى، مديحة يسرى، أحمد ماهر، إبراهيم يسرى، أحمد راتب.

مسلسل "مصر الجديده"

إنتاج عام 2004، يقدم المسلسل سيرة ذاتية لرائدة حقوق المرأة المصرية السيدة هدى شعراوى، قدم الفنان أحمد خليل دور الزعيم سعد زغلول.

المسلسل بطولة فردوس عبدالحميد، يوسف شعبان، أحمد خليل، هدى سلطان، أحمد راتب، داليا مصطفى، تأليف يسرى الجندى والإخراج محمد فاضل.

مسلسل "الملك فاروق" قدم الزعيم سعد زغلول والنحاس باشا

إنتاج عام 2007، تدور أحداث المسلسل عن السيرة الذاتية لآخر ملوك مصر "الملك فاروق"، وقدم المسلسل الشخصيتين التاريخيتين الزعيم سعد زغلول والنحاس باشا، وقدم الفنان عبدالرحمن أبو زهرة شخصية سعد زغلول، فيما قدم الفنان صلاح عبدالله شخصية مصطفى باشا النحاس.

المسلسل بطولة تيم حسن، نبيل الحلفاوى، صلاح عبدالله، عبدالرحمن أبو زهرة، وفاء عامر، محمود الجندى.

مسلسل "مشرفة رجل لهذا الزمان"

إنتاج عام 2011، تدور أحداث المسلسل حول حياة العالم المصرى الراحل الدكتور مصطفى مشرفة، وقدم المسلسل أيضاً سعد زغلول والنحاس باشا، وقدم شخصية الزعيم سعد زغلول الفنان خليل مرسى، بينما قدم الفنان طارق عبد العزيز شخصية مصطفى باشا النحاس.

المسلسل بطولة أحمد شاكر، هنا شيحة، منال سلامة، خليل مرسى، طارق عبد العزيز، ياسر فرج، والإخراج إنعام محمد على.

مسلسل "أهل الهوى"

إنتاج عام 2013، ويقدم المسلسل السيرة الذاتية للشاعر بيرم التونسى، وتناول أيضاً طرحا فنيا لسيرة سيد درويش الذى يعتبر فنان الشعب ومطرب ثورة 1919، قدم شخصية سعد زغلول الفنان عبدالرحيم حسن.

المسلسل بطولة فاروق الفيشاوى، إيمان البحر درويش، محمد لطفى، دينا، إيمان، عبدالرحيم حسن، عفاف رشاد، تأليف محفوظ عبد الرحمن والإخراج عمر عبد العزيز.

وعلى مستوى السينما قدم فيلم "البطل" للفنان أحمد ذكى، سردا لثورة 1919، بين ثلاثة أشخاص وهم حودة الذى يحب الملاكمة ويتمنى الاشتراك فى الأوليمبياد، وبيترو يحب الغناء، وحسن عامل المطبعة الذى يؤمن بالثورة، وقدم الفنان أحمد عبدالحليم شخصية الزعيم سعد زغلول.

الفيلم إنتاج عام 1998، بطولة أحمد ذكى، مصطفى قمر، محمد هنيدى، عبير صبرى، كارولين خليل، غادة عبدالرازق، تأليف مدحت العدل والإخراج مجدى أحمد على.

أعمال تناولت ثورة 1919

فيلم "كيرة والجن"

إنتاج عام 2022، تدور أحداث الفيلم حول أحوال الشارع المصرى قبل قيام ثورة 1919، وحالة الغضب والغليان لما تمر بهما البلاد، وتم نسج خط درامى بشخصية أحمد عبد الحى كيرة النضالية، التى تتوحد مع شخصية عبدالقادر الجن ويقومان بالنضال سويا.

الفيلم بطولة كريم عبد العزيز، أحمد عز، هند صبرى، سيد رجب، أحمد مالك، هدى المفتى، تأليف أحمد مراد والإخراج مروان حامد.

فيلم "مصطفى كامل"

إنتاج عام 1952، يبدأ الفيلم بمشهد لأحد التلاميذ فى إحدى المدارس، يعترض على الأوضاع السياسية فى عام 1919، ليذكر المدرس بنفس الموقف ولكن كان للزعيم مصطفى كامل، الذى أفنى حياته فى النضال، فيربط الفيلم فى طرح فنى من مدخل ثورة 1919، رحلة الزعيم مصطفى كامل.

الفيلم بطولة أنور أحمد، أمينة رزق، محمود المليجى، ماجدة، عبدالعزيز خليل، زينب صدقى، تأليف يوسف جوهر، والإخراج أحمد بدرخان.

فيلم "سيد درويش"

الفيلم إنتاج عام 1966، ويناقش الفيلم حياة الفنان الراحل سيد درويش، والتى كانت تختلط بحال البلاد قبل ثورة 1919، وتواجد الزعيم سعد زغلول، ويتطرق الفيلم للأحداث وشرارة الثورة ودور فنان الشعب سيد درويش بفنه.

الفيلم بطولة كرم مطاوع، هند رستم، أمين الهنيدى، زيزى مصطفى، ناهد سمير، هانى شاكر، والإخراج أحمد بدرخان.

مسلسل "بين القصرين"

إنتاج عام 1987، تدور أحداث المسلسل حول أسرة السيد أحمد عبدالجواد، والتى تعتبر إسقاطا فنيا على حال البلاد قبل ثورة 1919، والتنوع بين أفراد الأسرة، فى رسالة فنية لحال تلك الفترة، وكم التناقض فى شخصية حاكم الأسرة بين الشدة والقسوة، وبين اللهو والانحلال.

المسلسل بطولة محمود مرسى، هدى سلطان، معالى زايد، تيسير فهمى، صلاح السعدنى، مديحة حمدى، تأليف الكاتب والأديب الكبير نجيب محفوظ والإخراج يوسف مرزوق.

البوابة
صحيفة يومية مستقلة
تصدر عن المركز العربى للصحافة ش.م.م

نائب رئيس مجلس الإدارة والعضو المنتدب
خالد عبدالرحيم

مدير عام التحرير
محمود حامد

المدير الفنى
عمرو عطوة

مستشار التحرير
إسلام عفيفى

مجلس التحرير
عادل الضوى
مصطفى بيومى
سليمان شفيق
أمجد فهمى
عزت البنا
سامح قاسم
تامر أفندى
ياسر الغبيرى

سكرتير عام التحرير
أحمد عبد الله

سكرتيرو التحرير
محمد علوان
محمد نور
ضياء مصطفى

الإخراج الصحفى
محمد حامد

سكرتير التحرير التنفيذى
شريف زهير

المستشار القانونى
يحيى الدياسطى

العنوان
57 شارع مصدق
الدقى – جيزة
تليفون: 0233361040
فاكس: 0233361088
algareda2014@gmail.com

ماكيت أساسى: عمرو عطوة

دمتما بخير

الاحتفاء بذكرى رحيل الزعيمين الجليلين سعد زغلول ومصطفى النحاس ليس فعلا سياسيا، بل هو تعبير عن انتماء وطنى عابر للحزبية الضيقة والأيديولوجية المغلقة. عبر ثلث قرن تقريبا، منذ اشتعال الثورة الشعبية العظيمة فى مارس 1919، حتى سقوط العهد الملكى ورموزه فى يوليو 1952، قاد سعد والنحاس نضالا شعبيا نبيلا عظيما يراود الاستقلال والحكم الدستورى وترسيخ مبادئ الحرية والتنوير وترويض الاستبداد الملكى الموروث، وهما فى صدارة المتطلعين إلى التخلص من قيم ومفاهيم الحكم المطلق والشعارات الظلامية، وإذا كان الاختلاف معهما، فى الحياة وبعد الموت، حقا مشروعا على الصعيد السياسى، فإن الإساءة إليهما والتطاول عليهما وإنكار ما قاما به من إنجازات ليس إلا نوعا من المراهقة الصبيانية التى لا تعرف أقدار الرجال.

تنتصر "البوابة" فى احتفالها بالزعيمين للوطنية الخالصة العابرة للسياسى الهش المؤقت الزائل، وتأمل فى إنعاش الذاكرة لتعين الشباب الراغب فى المعرفة على التأمل فى تاريخ جدير بالفخر والاعتزاز، تمتد آثاره إلى الحاضر، وتتجاوزه إلى المستقبل الذى لا سبيل إليه إلا بالوعى والتسلح بالموضوعية والإفادة من الانتصارات والهزائم وتجنب الأحكام القاطعة سابقة التجهيز.

سعد زغلول ومصطفى النحاس زعيمان يحظيان فى الحياة والموت بمحبة طاغية واحترام يجمع عليه المؤيدون والخصوم على حد سواء، ولا شك أننا فى مسيس الحاجة لتقديم تحية تليق بمقامهما الرفيع وتتجاوز التعصب المقيت ولعنة الإقصاء الذى يقود بالضرورة إلى الهاوية.

يأبى رفيقا النضال الوطنى إلا أن يرحلا فى يوم واحد: 23 أغسطس من عامى 1927 و1965، ولم تكن الجنازتان المهيبتان فى وداعهما إلا الترجمة العملية لعظمة الشعب المصرى ووعيه بأهمية أصحاب الفضل من عشاق الوطن الذين يعطون حتى الرمق الأخير. الأمر نفسه نجده فى جنازتى مصطفى كامل وجمال عبد الناصر، 1908و 1970. الاحتفال بالوداع تجسيد لانتصار الحياة من ناحية وإصرار على الامتداد الذى لا يعرف القطيعة من ناحية أخرى.

لا بأس من العراك السياسى المتحضر، فلا أحد يحتكر اليقين والحقيقة المطلقة، ولا بد أيضا من التقييم الموضوعى المتزن الذى يعطى لكل زعيم قائد حقه، ذلك أن مصر للجميع بلا تمييز أو احتكار، والمعيار الوحيد هو الاجتهاد لخدمة الوطن، ومن لم ينل أجر الصواب لن يفوته أجر الاجتهاد.

فى ذكرى رحيل العظيمين، تقدم "البوابة" تحية تؤكد من خلالها أنها مؤسسة إعلامية وطنية لا هدف لها إلا الدعوة إلى مستقبل أفضل، ولأن سعد والنحاس لا يغيبان عن العقول والقلوب وإن احتجبا، فإننا نقول لهما: دمتما بخير دائما. ثقا أنكما تسكنان قلوب الملايين ممن يعرفون ما قدمتما من عطاء.

مصطفى بيومى

ضريح سعد زغلول.. رمز الحرية ومعبد النضال

استمر النضال 9 سنوات بعد وفاته حتى استقر فى موقعه الحالى.. ويزوره عشرات المواطنين يوميا

كتب - شادى مشرف

بناية شامخة على الطراز الفرعونى، عندما تقع عينك عليها تحسبها معبدا فرعونيا من العصور القديمة، تزين شارع الفلكى الواقع بمنطقة المنيرة، التابعة لقسم السيدة زينب بالقاهرة، وحول هذه التحفة المعمارية يمارس الناس حياتهم بشكل طبيعى فتجد الباعة يفترشون الأرصفة وتجد المقاهى الشعبية، كما أن وجود محطة لمترو الأنفاق يجعل آلاف من الناس يتوافدون على هذا المكان يوميا، إلا أن الجميع ينظر لهذا المكان باحترام وتقدير بالغ لما له من رمزية تاريخية عظيمة، فبداخل هذه البناية الرائعة واحدا من القادة الذين أحدثوا تغييرًا جذريًا فى مسار الأمور وأشعلوا نيران الأمل فى قلوب شعوبهم، حتى لقب بزعيم الأمة المصرية إنه الزعيم الخالد سعد زغلول.

فى عام 1927، توفى زعيم الأمة المصرية سعد زغلول، وكانت لحظة رحيله بمثابة خسارة عميقة للشعب المصرى وللحركة الوطنية، تلك اللحظة الحزينة أدت إلى انعكاسات كبيرة على الوعى الوطنى والتطلعات السياسية، لم يكن مجرد وفاة زعيم، بل كانت تجربة تمزق وجودًا مليئًا بالنضال من أجل الحرية والاستقلال.

عقب وفاة سعد زغلول، قررت الحكومة المصرية إقامة ضريح له يُبنى بجوار بيته، وكان قد دُفن بمقابر الإمام الشافعى مؤقتًا لحين إتمام الضريح وكذلك إنشاء تمثالين للزعيم الراحل أحدهما فى القاهرة والآخر فى الإسكندرية، لم ينته نضال سعد زغلول بعد رحيله بل ظل يناضل حتى استقر فى ضريح، حيث رفضت السراى الملكية والإنجليز قرار الحكومة، مبررين رفضهم بأنه ليس لمحمد على باشا الكبير وابنه إبراهيم باشا غير تمثال واحد

اكتمل الضريح فى عهد وزارة إسماعيل صدقى عام 1931، وكان من خصوم سعد زغلول، فعارض جعل الضريح الضخم لشخص واحد، واقترح تحويل الضريح إلى مقبرة كبرى تضم رفات كل الساسة والعظماء، غير أن صفية زغلول، رفضت ذلك بشدة، وأصرت على أن يكون الضريح خاصًا بسعد فقط، وفضلت أن يظل جثمانه فى مقابر الإمام الشافعى إلى أن تتغير الظروف السياسية وتسمح بنقله فى احتفال يليق بمكانته التاريخية كزعيم للأمة.

كان المقرر أن يتم إنشاء الضريح ويُنقل إليه الجثمان خلال ستة أشهر من بداية تشييده، غير أن البناء لم يتم إلا سنة 1931، ولم يُنقل رفات سعد زغلول إلى الضريح إلا فى سنة 1936، أى بعد تسع سنوات من وفاته، حيث قدمت الحكومة مشروع قانون يقضى "بنقل رفات المغفور له سعد باشا زغلول إلى ضريح سعد" وهو القانون رقم 53 لسنة 1936.

وفى تصريح لأحد العاملين فى هذا الضريح رفض ذكر اسمه، قال إن الضريح يأتى لزيارته عشرات المواطنين من عامة الشعب لزيارته وقراءة الفاتحة خاص أن تذكرة دخوله الضريح 10 جنيهات فقط، كما أن بعض المارة يدخلون إلى الحديقة ويقرؤون الفاتحة من خارج الضريح فى حالة عدم قدرتهم على دفع ثمن التذكرة، ويؤكد أن أغلب سكان المنطقة والعاملين بها يقدرون هذا المكان الذى يعد رمزا للنضال والوطنية ويعاملون القائمين على الضريح بشكل مميز.

وتابع حديثه، بأنه فى المناسبات التى تتعلق بسعد زغلول صاحب الضريح مثل ذكرى ميلاده ووفاته وذكرى ثورة 1919 نقوم بتجهيز المكان للزائرين فنقوم بتقليم الأشجار وقص العشب بالحديقة وتنظيف الضريح من الداخل والخارج، ويأتى فى هذه المناسبات شخصيات عامة ومرموقة كما أن العديد من الشباب يزور الضريح فى هذه المناسبات.

الزعيمان

مصطفى بيومى يكتب:

مصطفى النحاس يتربع منفردا فوق القمة

«العملاق» و«جمهورية زفتى» و«طائر العنق» و«مصر الجديدة».. أبرز المسلسلات التى قدمت الزعيمين

كان للنحاس إنجازاته وشعبيته الطاغية التى تصمد للمقارنة بشعبية سعد زغلول بل تتفوق عليه عند بعض الوفديين

....

يقدم نجيب محفوظ موجزا لتاريخ حياة مصطفى النحاس، من خلال الشهادة التى يدلى بها فى مطلع محاكمته "أمام العرش": "ولدت فى سمنود فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء، وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى، ولتفوقى عينت فى القضاء فعُرفت بالعدل والنزاهة، وكنت من أنصار الحزب الوطنى الذى زاملت رئيسه طالبا بالمدرسة الخديوية، وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول اختارنى عضوا فيه، ونُفيت معه إلى سيشل عام 1921، واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية.

وعقب وفاته أُنتخبت رئيسا للوفد، وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان، وقد توليت الوزارة سبع مرات وأُقلت منها ست مرات لخلافات مع الإنجليز أو الملك، وفى 1936 وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية قبلت الائتلاف مع الأحزاب وعقدنا معاهدة مع الإنجليز اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلاء بعد عشرين عاما.

وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبدادى ملكى، وأُتهم الملك بالاتصال بأعداء الإنجليز فنشبت أزمة سياسية خطيرة وفكر الإنجليز فى خلع الملك، وتقدمت لإنقاذ البلاد والعرش وألفت وزارة فى ظروف عسيرة، ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز شرعت فى المطالبة بالجلاء الفورى ولكن الملك أقالنى.

ورجع الملك إلى استبداده وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام 1950 فرجعت إلى الوزارة، وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء، ولما لم أجد منهم استجابة ألغيت المعاهدة وأعلنت الجلاء فتآمر علىّ أعدائى فى الداخل والخارج واستطاع الملك أن يتخلص منى. وقامت ثورة يوليو واضطررت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل".

منذ ميلاده فى سمنود، إلى قيام ثورة يوليو والاعتزال الإجبارى للعمل السياسى، تتشعب حياة النحاس الحافلة فى عالم نجيب محفوظ بحيث لا يمكن الإحاطة بها إلا عبر ثلاثة محاور: الأول فى ظل زعامة سعد زغلول، والثانى منذ صعوده إلى الزعامة حتى يوليو 1952، أما المحور الثالث فمنذ قيام الثورة إلى رحيله فى أغسطس 1965.

إذا كانت المرحلتان الأولى والثالثة تتسمان بالتواجد الهامشى الضئيل، فإن المرحلة الثانية من الاتساع والثراء بحيث يلزم تقسيمها إلى عدة عناصر: الصراع ضد الملك وأحزاب الأقلية، معاهدة 1936، قضية الانشقاقات عن الوفد، حادث 4 فبراير، حكومة الوفد الأخيرة، إنجازات النحاس، شعبيته ومكانته عند الوفديين مقارنة بزعامة سعد زغلول.

الطريق إلى الزعامة

على الرغم من إشارة النحاس، فى شهادته "أمام العرش"، إلى أنه كان من أنصار الحزب الوطنى قبل ثورة 1919، فإن الموقع الذى يحتله لم يكن كافيا ليُعد من الرموز والزعماء البارزين فى الحزب.

يُنفى النحاس مع سعد إلى جزيرة سيشل عام 1921، ويشترك فى الوزارة الشعبية الأولى، 1924، لكنه لا يحتل موقعا بارزا، فى عالم نجيب، قبل وفاة سعد.

ثمة إشارة عابرة فى اقتراح محمد عفت على أصدقائه، فى "قصر الشوق"، أن يشربوا كأسا فى صحة سعد زغلول والنحاس :"اللذين سيسافران فى نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة".

الوفد المسافر للتفاوض يضم أسماء كثيرة بطبيعة الحال، لكن الاكتفاء بالصحبة الثنائية، دون اهتمام بالآخرين، يوحى بأن النحاس هو الخليفة المنتظر.

وفى جنازة الوفدى الكبير العلوى باشا فى قصة "صباح الورد"، يشهد الشارع جنازة مهيبة يسير فى مقدمتها "سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وماهر والنقراشى".

فى الترتيب دلالة موحية بمكانة النحاس، الذى يأتى اسمه بعد سعد زغلول مباشرة.

لا غرابة فى هامشية وجود النحاس فى عالم نجيب محفوظ خلال المرحلة المواكبة لثورة 1919 وما بعدها، ذلك أن الاهتمام كله ينصب على سعد، ولا يتغير الأمر إلا بعد رحيل الزعيم الأسطورى وصعود النحاس إلى مقعد القيادة.

من أغسطس 1927، تاريخ وفاة سعد زغلول، إلى قيام ثورة 23 يوليو 1952، كان مصطفى النحاس زعيم الأمة بلا منافس، وصاحب الوجود المؤثر الفعال فى الحياة

وهو من ينشق مع السعديين بعد ذلك، يرى أن الذين ينتقدون المعاهدة غير مخلصين :"إنها الكراهية والحسد. إن الاستقلال الحقيقى الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب، فكيف يطمعون فى أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا".

بصرف النظر عن إخلاص نقاد المعاهدة من عدمه، فإن كلمات عزت نفسه تؤكد على معنيين مهمين. الأول: إن المعاهدة لم تحقق "الاستقلال الحقيقى الكامل" الذى لا يمكن تحقيقه إلا بالحرب، والثانى: إن المعاهدة تحققت بـ "الكلام" والتفاوض وليس بالنضال الشعبى الفعال.

من ناحية أخرى، تبدأ المسألة الاجتماعية فى طرح نفسها بشدة بعد توقيع المعاهدة، وفى "الباقى من الزمن ساعة" يمثل الوفدى حامد برهان بالنصر ويقول لسماره :"كُلل جهاد الوفد أخيرا بالفوز المبين"، وتكشف تعليقات أصدقائه المقربين عن تفهمهم لجملة الظروف التى تحيط بتوقيع المعاهدة، كما تظهر الآمال العريضة المعقودة عليها:

"- المعاهدة ثمرة صراع مرير بين إمبراطورية طاغية من ناحية وبلد أعزل من ناحية أخرى، فهى مشرفة.

- انتهت أيام اللعنات وسوف يحكم الوفد إلى الأبد".

حكم الوفد، حزب الشعب، ليس مطلبا فى ذاته، بل إنه وسيلة ليحقق الحزب بزعامة النحاس كل الأحلام الشعبية المشروعة التى يطول انتظارها.

هذا الموقف من المعاهدة: الوعى بالظروف المحيطة بها من ناحية والتفاؤل بما يترتب عليها من ناحية أخرى، يتبناه كل الوفديين فى عالم نجيب محفوظ، ويعبرون عنه بكلمات متشابهة.

فى "بداية ونهاية"، يقول أحد هؤلاء الوفديين :"من كان يصدق أن يعترف الإنجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفظات الأربعة؟"، ثم يعبر عن طموح ما بعد المعاهدة فى قوله :"سيحكم النحاس إلى الأبد! انتهى عهد الانقلابات".

عهود الانقلابات لا تنتهى، ولا يحكم النحاس إلى الأبد، ويبدأ عصر الانهيار.

لم يكن الخلاف بين النحاس والنقراشى هو السبب الوحيد فى اعتزال الوفدى نادر برهان، فى "المرايا"، للعمل السياسى، بل كان من أسباب الاعتزال أيضا ما يعبر عنه بقوله :"ولما كانت هذه المعاهدة قد ختمت ثورة 1919 وتحقق لنا الاستقلال "ولو بعد حين" فقد قررت اعتزال السياسة".

تنتهى الثورة إذا بتوقيع المعاهدة، ويبدأ الثوار فى التحول بعيدا عن الاهتمام بالسياسة. منهم من يقنع بأعماله الخاصة مثل نادر، ومنهم من يتجه إلى المتاجرة بالسياسة مثل المعلم كرشة فى "زقاق المدق".

كان عام 1936 آخر عهده بالسياسة، فطلقها بعد ذلك وتزوج بالتجارة :"وانقلب نصيرا لمن يدفع أكثر، وجعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد، قائلا إنه إذا كان المال غاية المتنابذين فى ميدان الحكم فلا ضير أن يكون كذلك غاية الناخبين المساكين!".

لا يقتصر الفساد على أفراد، ذلك أنه يمتد إلى النظام كله، ويصل إلى الوفد نفسه كما يقول الوفدى المأزوم عيسى الدباغ فى "السمان والخريف" :"كنا حزب المثل الأعلى، حزب التضحية والفداء، حزب النزاهة المطلقة، حزب "كلا ثم كلا" أمام كل المغريات

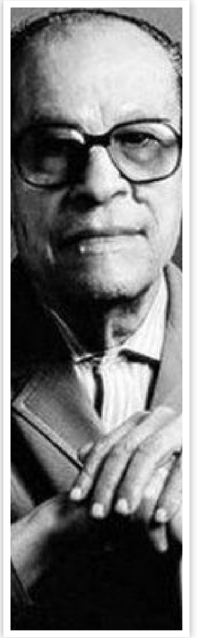

نجيب محفوظ قدم موجزا لحياة النحاس من الشهادة التى يدلى بها فى مطلع محاكمته «أمام العرش»

الزعيمان

"السكرية"، تُقال عن مكرم عبيد :"إنه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك".

المسألة ليست فى "نزاهة الحكم" فحسب، بل إنها أيضا فى الاستحواذ على النحاس لانتظار ميراث الزعامة، ومما يؤكد أن النزاهة كانت "واجهة" لتبرير الانشقاق، ما يقوله واحد من جلساء الباشا :"لقد خسر النحاس خسارة لا تُعوض، وارتضى أن يؤيد الشيطان ضد الملاك الطاهر".

صراع شخصى حول القرب من الزعيم، وليس خلافا موضوعيا خالصا تجاه قضية النزاهة.

يُصاب بعض الوفديين المخلصين بحالة من "القرف" فى أعقاب الانشقاق الأول الذى يجبرهم على الاختيار المر بين النحاس والنقراشى، ويجسد نادر برهان، فى "المرايا"، جوهر الأزمة فى قوله :"لم أحزن فى حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى النحاس والنقراشى. كان النحاس زعيمى، وكان النقراشى أبى الروحى، ولم أتصور الدنيا صالحة للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين".

فى انشقاق مكرم عبيد، يتكرر الصراع من أجل الاستئثار بالنحاس، أو كما يقول كمال عبد الجواد فى "السكرية" :"دعنا من الفساد الحكومى، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هى على النفوذ"، ويتساءل رياض قلدس، المسيحى اللا دينى الذى لا يخفى تعاطفه مع مكرم، مشيرا إلى زوجة النحاس ودورها فى تقليص نفوذ مكرم :"أيُباع مكرم المجاهد بعاطفة زائفة؟".

ثمة دوافع متعددة لهذين الانشقاقين الخطيرين اللذين يؤثران سلبا على الوفد وقوته، لكن الرغبة فى "الاستحواذ" على النحاس والاستئثار به تبدو دافعا قويا مشتركا فيهما.

النقراشى وماهر يواجهان مكرم عبيد فى الانشقاق الأول متذمرين من نفوذه المتزايد، ومكرم بدوره يواجه زوجة النحاس فى الانشقاق الثانى، فهى التى تستأثر بقلب الزعيم وتسحب البساط من تحت قدمى مكرم.

حادث 4 فبراير

واقعة 4 فبراير من الأحداث ذات الآثار والتداعيات الخطيرة فى التاريخ المصرى، وربما كان الأثر يفوق حجم الحادث الذى تستغله أحزاب الأقلية لمهاجمة الوفد والتشكيك فى النحاس، كما يستغله الملك فاروق وبطانته وصحفه لتصوير الأمر وكأنه بطولة من الملك وتفريط من الوفد وزعيمه.

يرصد عالم نجيب محفوظ الملابسات المختلفة المحيطة بالحادث، ويعرض لتأثيره على الوفديين وخصومهم من المنتمين إلى أحزاب الأقلية.

إسماعيل لطيف، فى "السكرية"، وهو من اللامبالين سياسيا، يتصور الأمر بما يتوافق مع نظرته الذاتية الضيقة، كأنه انتقام شخصى من النحاس لإقالة ديسمبر 1937 :"فاقتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية".

أما الوفديان رياض قلدس وكمال عبد الجواد، فى الرواية نفسها، فيدور بينهما حوار بالغ الأهمية يعبر عن استيعاب رياض لحقيقة الموقف من وجهة نظر وفدية لا يهتز إيمانها بالزعيم، وتردد كمال وشكه "المثالى" على الرغم من وفديته:

- ليس النحاس بالرجل الذى يتآمر مع الإنجليز فى سبيل العودة إلى الحكم. إن أحمد ماهر مجنون، هو الذى خان الشعب وانضم إلى الملك ثم أراد أن يغطى مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذى أعلنه أمام الصحفيين.

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك فى وطنيته مطلقا. إن الإنسان لا ينقلب فى هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولاها خمس مرات أو ست من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالى؟

- أنت شكاك لا نهاية لشكك.. ما الموقف المثالى؟

- أن يصر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطانى وليكن ما يكون.

- ولو عُزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم

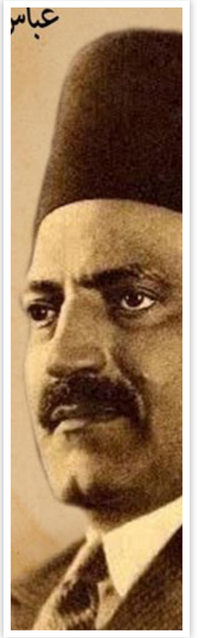

تم نفى النحاس مع سعد إلى جزيرة سيشل عام 1921 واشترك فى الوزارة الشعبية الأولى عام 1924

«ما يقدم فى كتب التاريخ أو كتب الدراسات الاجتماعية هل هو ما يقدم بالفعل للطلبة، أم أنها مجرد معلومات قد يشوبها الخطأ أو الإخفاق أو أنها معلومات ليست كافية ليتعرف الطالب على تاريخ وطنه واللحظات الفارقة فيه»

كتب التاريخ المدرسية فى ميزان النقد

أفكار مبتسرة لاتكفى لبناء الشخصية الوطنية

إغفال تاريخ ثورة 1919 والحديث عنها لم يتعد الصفحتين واسم مصطفى النحاس لم يذكر فى الكتب المقررة على المرحلتين الابتدائية والإعدادية

كتبت - سمية أحمد

«عاشت مصر حرة مستقلة» من منا يستطيع نسيان هذا الهتاف الذى صاحب ثورة المصريين فى عام 1919 والتى فجرت معها العديد من القضايا، لعل من أهمها هو قضية الهوية المصرية، من نحن؟، ليصبح المصريون أمام سؤال الهوية المصرية؟ ، من نحن؟ هذا التساؤل الذى عاد به الزعماء المصريون بعد مقابلة الإنجليز بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وسؤالهم عن وضع مصر بعد الهزيمة، لنعود إلى هذا المشهد الذى وصفه توفيق الحكيم فى كتابه «مصر بين عهدين» هذا المشهد الدرامى الذى وقف فيه زعماء الأمة أمام أنفسهم لتشتعل بعدها حركة التنوير فى فترة العشرينيات من القرن الـ 20، «فسألهم الإنجليز هل تعودون إلى الدولة العثمانية المنهزمة؟ فقال الزعماء: بل نعود إلى مصر، فدهش الإنجليز وسألوا ماهى مصر. فإننا لا نعرف شيئًا اسمه القطر المصرى؟ وكما هو موجود على الخرائط الرسمية يتبع سياسيًا الدولة العثمانية وحضاريًا العربية حسب الدين واللغة، أما مصر فأين هى وما مقوماتها؟ وما شخصيتها؟»، ليعود الجميع إلى مصر يبحثون عن هويتها الثقافية فى شتى المجالات فى الأدب فى الفكر فى الثقافة فى الفن.. إلخ.

لم يكن مجرد تساؤل فقط، وإنما امتد إلى حركة تنوير لتظهر بعدها الكثير والكثير من المؤلفات التى تحكى حكاية مصر وهويتها وثقافتها حكاية شعب وثورة ونضال ، لم يكن مجرد هتاف «عاشت مصر حرة مستقلة» وإنما مسيرة وسيرة شعب يبحث عن ذاته وسط الاحتلال والاستعمار، والسؤال الأهم هنا كيف يحكى التاريخ لأبنائنا فى الجيل الراهن عن تلك الحكايات وعن زعماء بنوا وتحملوا روح القضية المصرية، ماذا تحويه كتب الدراسات الاجتماعية التى يتم تدريسها فى المرحلة الابتدائية، وكتب التاريخ فى المرحلة الإعدادية والثانوية، بل هل يدرس تاريخ الوطن الحديث فى الجامعات غير المتخصصة فى التاريخ.

رحلة فى كتاب التاريخ المدرسى

المتفحص فى كتب الدراسات الاجتماعية من الصف الرابع الإبتدائى، وهو الذى تبدأ فيه مادة الدراسات الاجتماعية مقررة على الطلبة فى سن مبكرة، إذا أن الصفوف الأولى لاتطرق إلى مصر أو هويتها أو ثقافتها قبل تلك المرحلة العمرية وتقتصر على كتب اللغة العربية والكتب الدينية.

وعلى الرغم أن المنهج الخاص بالصف الرابع الابتدائى فى كتاب الدراسات الاجتماعية يقتصر فى تعريف حول المجتمع والثقافة وأنماط السكان ونظام الحكم فى البلد، والمشكلات الاجتماعية، والأماكن السياحية والتراثية والمسئولية نحو التراث، ودراسة بعض الشخصيات المصرية المؤثرة والتى تبدأ بملوك الحضارة المصرية القديمة مثل الملكة حتشبسوت والملك خوفو، حتى تلك الشخصيات تم الحديث عنها باقتضاب شديد جدا اذا اقتصر التعريف بهم فى مقطع صغير مجرد معلومات يمكن الحصول عليها بمنتهى السهولة بل وبشكل أعمق وبتفاصيل أكثر بمجرد البحث عبر الشبكة العنكبوتية، فلا عجب إذن إن لم نجد الحديث عن ثورة 1919 أو الزعيمين سعد زغلول ومصطفى النحاس فى كتاب التاريخ، فالملكة حتشبسوت والتى حكمت مصر قرابة العشرين عاما لم يذكرها كتاب التاريخ فى بضع كلمات لا تتعدى المائة كلمة وهى «أنها من أشهر ملكات مصر وحكمت مصر مدة تزيد على عشرين عامًا، وتميز عهدها بالاستقرار والازدهار الاقتصادى، وأعادت فتح المحاجر والمناجم التى أهملت فترة طويلة وأرسلت الرحلات البحرية للتجارة مع الدول المجاورة مثل بلاد بونت "الصومال" والتى كانت محملة بالهدايا والبضائع المصرية.

ونعود مرة أخرى بالسؤال عن الزعيمين ماذا ذكرت كتب التاريخ عنهما، ولعلنا قد نستبق الأحداث حينما نتعجل الحديث فى كتب التاريخ عن عصرنا الحديث، وربما يكون هدف وزارة التربية والتعليم هو العودة بالتاريخ المصرى إلى العصور القديمة ثم تتطرق فيما بعد إلى تاريخ مصر فى العصر الحديث، وربما تكون تلك هى الاستراتيجية التى يتم عليها توعية وتنشئة الجيل الجديد مثل ما تطرق إليه مقدمة كتب الدراسات الاجتماعية حيث تقول مقدمة كتاب الدراسات الاجتماعية فى أغلب مقدمتها الآتى :«لقد آثرت الدولة المصرية أن تستثمر فى أبنائها عن طريق بناء نظام تعليم عصرى بمقاييس جودة عالمية، من أجل أن ينعم أبناؤنا وأحفادنا بمستقبل أفضل، وكى ينقلوا وطنهم "مصر" إلى مصاف الدول الكبرى فى المستقبل القريب، إن تحقيق الحلم المصرى فى التغيير مسئولية مشتركة بين مؤسسات الدولة أجمعها ، وأولياء الأمور والمجتمع المدنى والتعليم الخاص ووسائل الإعلام فى مصر، وهنا أود أن أخص بالذكر الأساتذة المعلمين الأجلاء الذين يمثلون القدوة والمثل العليا لأبنائنا ويقومون بالعمل الدءوب لإنجاح هذا المشروع القومى» بعد هذه الكلمات الرنانة التى تزين كتاب الدراسات الاجتماعية يشغلنا تساؤل أكبر ونطرحه للعنان بعد كل الملاحظات بشأن ما يقدم فى كتب التاريخ أو كتب الدراسات الاجتماعية للطلبة هل هو ما يقدم بالفعل للطلبة، أم أنها مجرد معلومات قد يشوبها الخطأ أو الإخفاق أو أنها معلومات ليست كافية ليتعرف الطالب على تاريخ وطنه لاسيما اللحظات الفارقة فى تاريخنا، والسؤال الآخر من يكتب كتب التاريخ؟ وما هى الرسالة ونحن اليوم نتساءل حول الهوية المصرية وتراثنا الحضارى فى مجتمع يتوجه نحو الآلة والذكاء الاصطناعى فى مجتمع تصاحبه تكنولوجيا المعلومات وعصر الميتافيرس والذكاء الاصطناعي والشات جى بى تى، أين نقف نحن الآن.. وهل المعلم الذى تتحدث عنه المقدمة هو القدوة اليوم، ربما الحديث عن الزعيمين قد يأخذنا لفتح إشكاليات كبرى وربما من أبرزها سؤال الهوية؟ الذى أصبح ملحًا لاسيما فى الفترات الأخيرة؟

كتاب التاريخ

نعود مرة لكتاب الدرسات الاجتماعية فى الصف الخامس الابتدائى، ولعلها تكون صرخة لإعادة النظر فيما يقدم لأبنائنا من علوم وقضايا تمس واقعنا المصرى، ولماذا لا نلجأ لما خلفه أدباؤنا ومفكرونا من إسهامات فكرية فى هذا الصدد، فلدينا عشرات وعشرات المؤلفات التى تجوب بنا حول التاريخ ويأتى على رأسها كتاب شخصية مصر لجمال حمدان وتكوين مصر لشفيق غربال وصبحى وحيدة فى كتابه "فى أصول المسألة المصرية" وصبرى السوربونى فى كتابه "نشأة الروح القومية المصرية" كل تلك الإسهامات الفكرية وغيرها الكثير كان يمكن الاستعانة بها بدلا من المثول إلى تقديم معلومات تبدو سطحية وغير عميقة.

نعود للصف الخامس الابتدائى والذى نجد فيه مجموعة من الدروس التى تتعلق بالثقافة والمجتمع والتى تتناولت موضوعات منها السكان والحياة الاجتماعية والدينية والهرم السكانى فى مصر ونمو السكان ومشكلة الزيادة السكانية والحياة الاجتماعية فى بلدنا بين الماضى والحاضر وهذا الدرس الذى يجب أن نتوقف عنده قليلا هو ودرس الحياة الدينية فى بلدنا بين الماضى والحاضر، كما يتطرق المنهج إلى لمحات عن التاريخ والحضارة فى مصر ومنها انتصارات مصر عبر العصور ومصر فى العصر البلطلمى والرومانى والعمارة والفنون فى بلدنا والعلوم والآداب ودراسة بعض الشخصيات المؤثرة ومنها الملك رمسيس الثانى وقفزة تاريخية وحديث عن الرئيس الراحل محمد أنور السادات.

ومن الملاحظ أن هناك قفزات تاريخية فى الحديث عن تاريخ مصر من خلال العناصر والموضوعات ومنها الحديث عن انتصارات مصر عبر التاريخ فيقدم للطلبة انتصارات لجيش المصرى فى الحضارة المصرية القديمة ثم يقفز قفزة تاريخية ليتحدث عن انتصارات الجيش المصرى فى عصر الدولة الحديثه ومنها الحديث عن معركة مجدو ومعركة قادش ثم حرب أكتوبر عام 1973 .

ومرورًا بالمناهج التى تُقررعلى الطلبة فى المرحلة العمرية المبكرة والتى قد تبدو فى ظاهرها أنها تتعلق بما يمر بها المجتمع من متغيرات كبيرة سواء على المستوى الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى، والمعرفى أيضًا، فأصبحت تلك المناهج التى تقدم للطلبة ربما تبدو مناهج غريبة وكأننا نتحدث عن وطن آخر لا يعرف عنه طلاب تلك المرحلة العمرية المبكرة أى شىء، لاسيما وأنه من المفترض أن يكون من شأنها البناء والتقويم وترسيخ الهوية القومية.

بحث دائم

هنا، نقف عند تساؤل هل نستمر بالبحث عن الزعمين سعد زغلول ومصطفى النحاس بداخل كتب التاريخ أم نتروى قليلا، ربما نجد شيئًا يدلنا على هذين الزعيمين، وربما قد يأخذنا التساؤل والبحث عن الزعيمين إلى البحث حول الهوية المصرية أيضًا فقد وجد المصريون ضالتهم فى الزعيم سعد زغلول والتف حوله المصريون فى هتاف الأغانى بعدما منعت قوات الاحتلال ذكر اسمه ليخرج لنا مطرب الشعب «سيد درويش» منشدًا باسمه رغمًا عن قوى الاستعمار قائلاً :« يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح. يا بلح زغلول يا زرع بلدى. عليك ياوعدى يابخت سعدى. زغلول يا بلح يا بلح زغلول. يا حليوة يا بلح يا بلح زغلول» وهكذا اسمه أصبح يتردد بين الصغار والكبار رغم الحظر ورغم الخطر، فما السبب بعد ذكره فى مناهج الدراسات الاجتماعية فى المرحلة الابتدائية والتى تطرقنا على رؤيتها ودراساتها منذ الصف الأول الابتدائى وحتى الصف السادس الابتدائى، على الرغم من أننا نشاهد بين الحين والآخر بين القصرين لنجيب محفوظ ونسمع هتاف «سعد سعد يحيا سعد» فمن هذا سعد الذى علا صوت الهتاف باسمه؟؟ لا إجابه عنه ولا ذكر عنه فى كتب الدراسات الاجتماعية .

وبإلقاء نظرة على ما يتم تدريسه فى كتب الدراسات الاجتماعية فى الصف السادس الابتدائى والذى يعطى للفئة العمرية ما بين 11 و 12 عامًا، لا يذكر فى كتاب التاريخ، وربما سيتم ذكره فى مرحلة عمرية متقدمة .

ففى الصف السادس الابتدائى يتلقى الطلبة معلومات عن البيئة المصرية وخصائص البيئة الزراعية والسكان والأنشطة الاقتصادية فى البيئة الزراعية، هذا بالإضافة إلى البيئة الاقتصادية والعوامل الطبيعية والبشرية للصناعة ، ومشكلات الصناعة والبيئة الصناعية وكيفية التغلب عليها، كما يتضمن منهج الدراسات أيضًا الحديث عن الصناعة المصرية والمناطق الصناعية، ولأننا بصدد الحديث عن مناهج التاريخ إلا وأننا كنا خصصنا حديثًا مطولاً عما يتم تدريسه للطلبة فى هذه السن.

أما عن المنهج التاريخى فيتضمن الحديث عن مصر فى ظل الحكم العثمانى، والحملة الفرنسية، وتولى محمد على باشا حكم مصر وبناء الدولة الحديثة خلال الفترة من (1805 وحتى 1848) لنغلق هنا درس التاريخ للفصل الدراسى الأول ، ونعود للفصل الدراسى الثانى ليبدأ أول حديث عن ثورة 1919 والحركة الوطنية ومقاومة الاحتلال البريطانى، وهو ما سوف نتعرض له بالتفصيل.

الحركة الوطنية ومقاومة الاحتلال

يبدأ أول درس فى التاريخ بالحديث عن أحمد عرابى أول قائد مصرى للجيش والذى اقتصر الحديث عنه عن بعض المعلومات التى تناولت تاريخ مولده ودوره فى الثورة العربية والجيش المصرى وأهم ما نادى به وهى المساواة بين أبناء الجيش المصرى وتأسيسه الجمعية السرية لمصر الفتاة والتى أصبح عضوًا بارزًا فيها، وحديث مقتضب حول الثورة العربية وأسبابها وأحداثها، مرورًا بالحديث عن الزعيم مصطفى كامل ومحمد فريد حتى يأتى الدرس الثانى عن ثورة 1919، وهو الدرس الذى سنقدمه كما كتب فى كتاب التاريخ .

الدرس الثانى ثورة 1919

«عمل سعد زغلول محررًا فى جريدة الوقائع المصرية، وانضم على الثورة العرابية، واشتغل بالمحاماة، ثم عمل بالقضاء وشارك فى الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية، ثم تولى نظارة المعارف فى 1906م، وفى 1910 تم اختياره وزيرًا للحقانية "العدل" وانتخب عضوًا بالجمعية التشريعية فى 1913م واكتسب سعد زغلول أهمية فى تاريخ مصر باعتباره زعيم ثورة 1919م، ولد سعد زغلول بإحدى قرى مديرية الغربية فى يوليو 1858م من أسرة مصرية والتحق بالأزهر الشريف سنة 1872م ليتلقى تعليمه الدينى، وتتلمذ على يد السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده».

هذا ما ذكره كتاب الدراسات الاجتماعية عن الزعيم سعد زغلول مجرد معلومات عامة عن مولده ونشأته وتعليمه، ولكن دوره الوطنى كزعيم للمعارضة وكزعيم لحزب الوفد وغيرها من الأشياء التى تتعلق بحياته وكفاحه سواء قبيل ثورة 1919 أو بعدها لايوجد منها سوى أسباب الثورة وحديث هامشى حول الحركة الوطنية إذا نجد فى مربع صغير لا يتعدى الخمسة أسطر ما يلى «قاد سعد زغلول الحركة الوطنية من أجل الاستقلال والدستور، وخاض المعارك الضارية ضد سلطات الاحتلال البريطانى وضد الملك فؤاد، وتوفى فى أغسطس 1927م ليدخل التاريخ زعيما وقائدا لثورة 1919م».

أما عن تصريح 28 فبراير عام 1922 فقد جاء الحديث عنه فى سطرين وهما "وضع دستور 1923م وإجراء الانتخابات العامة، ونال حزب الوفد بزعامة سعد زغلول أغلبية مطلقة، وتشكيل أول حكومة دستورية فى مصر عام 1924م برئاسة سعد زغلول» وهكذا أقفلت صفحات كتاب الدراسات الاجتماعية الحديث عن الزعيم سعد زغلول فى الأسطر السابقة. وربما قد لم يحالفنا الحظ وتخوننا الذاكرة لربما تتحدث عنه كتب التاريخ فى المراحل العمرية المتقدمة وربما يحظى الطلبة فى المرحلة الإعدادية الحديث بشكل أكثر تفصيلا حول حركة النضال الوطنى.

نقطة الصفر

مرة أخرى يبدأ درس التاريخ من جديد دون ذكر للزعيمين فيأتى منهج الصف الأول الإعدادى فى الترمين الأول والثانى خاليا من أى حديث عن تاريخ مصر الحديث، ويتضمن المنهج تاريخ مصر منذ الحضارة المصرية القديمة وعصور ما قبل التاريخ وحتى مصر تحت حكمى العصرين البطالمة والرومان وفى فترة دخول المسيحية فى مصر، وحديث مقتضب أيضًا عن الإسكندر الأكبر، ومن الواضح أن كتب التاريخ تأبى وأن تتحدث بشكل تفصيلى عن سير هؤلاء الرواد والزعماء، وربما نجد ضالتنا فى السنوات العمرية المقبلة ولعلنا نجد ما هو أكثر تعمقًا حول الشخصيات المصرية الوطنية، ولعل العاملين بمجال التربية والتعليم يغفلون وجود الشبكة العنكبوتية وما تحملة من معلومات حول تاريخ مصر.

وهنا يتوقف الحديث عن تاريخ مصر ليبدأ فصلاً جديدًا فى الصف الثانى الإعدادى بالحديث عن حياة سيدنا محمد وحول شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وقصة ونشأة وحياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وبعثه وهجرته وتاريخ الخلافة الإسلامية منذ عصر الخلفاء الراشدين من أول خلافة أبى بكر الصديق وحتى خلافة على بن أبى طالب، وهنا يجب أن تطرح التساؤلات لماذا توقف الحديث عن تاريخ مصر والذى توقف عند حدود العصر الرومانى ودخول المسيحية، وهل التطرق لشبه الجزيرة العربية فى دروس التاريخ أمر أهم من الحديث عن تاريخ مصر ومعرفة الطلبة المصريين بتاريخهم والذين لا يعرفون عنه الكثير لاسيما وأننا نتحدث حول الهوية.. وهذا التساؤل سنتركه للقائمين على وضع المناهج التعليمية بوزارة التربية والتعليم.

مرة أخرى يعود بنا المنهج بعد تلك الفجوة الزمنية التى أحدثها منهج الدراسات الاجتماعية القسم الخاص بالتاريخ إلى تاريخ مصر الحديث والذى يعود الحديث فيه حول تاريخ مصر تحت الحكم العثمانى، والذى جاء فى أربعة دروس وهى مصر بين المماليك والعثمانيين، والحملة الفرنسية على مصر، وثورة الشعب المصرى وتولية محمد على، ومحمد على وبناء مصر الحديثة، ويأتى الجزء الثانى أو الوحدة التالية بعنوان " مصر والزحف الاستعمارى ومحاولات التحرر الوطنى والتى أتت أيضًا فى أربعة دروس على النحو الآتى ، خلفاء محمد على وازدياد النفوذ الأجنبى، والحركة الوطنية والثورة العربية، والكفاح الوطنى ضد الاحتلال البريطانى ومصر من الحماية البريطانية حتى ثورة يوليو 1952م .. لينتهى درس التاريخ ويقتصر على وضع صورة سعد زغلول وذكر اسمه فى بضعة أسطر حول دوره فى ثورة 1919 ضمن درس التحرر الوطنى.

وتغفل صفحات التاريخ فى المدارس ذكر اسم مصطفى النحاس باعتباره أحد زعماء مصر وأحد أهم روادها فى حركة النضال الشعبى ضد الاحتلال البريطانى غافلين دوره الكبير والظلم الذى تعرض له .. ليزيد هذا الظلم بإغفال كتب التاريخ فى المرحلة السنية المبكرة لأبناء مصر.

«مصطفى النحاس»

كتاب يروى حكاية زعيمين حاربا من أجل الديمقراطية

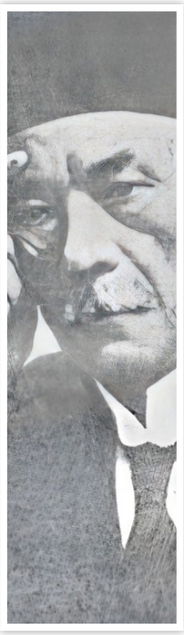

المؤلف عباس حافظ يصف «النحاس» فى الكتاب الصادر عام 1937 بأنه «مادة أصيلة فى شرح جوهر العظم الروحى والتاريخى الذى تحمله كلمة الزعامة»

كتب- أحمد صوان

فى كتابه «مصطفى النحاس»، الصادر عام 1937، يجعل المؤلف عباس حافظ من شخصية ذلك الزعيم الوطنى "مادة أصيلة فى شرح جوهر العظم الروحى والتاريخى الذى تحمله كلمة الزعامة"، كما وصفه الناشر، حيث يتناول الأسرار المؤلفة لشخص النحاس، والصفات التى يوسم بها الزعماء، والظروف التى تتشكل بها الشخصية التى تنطبق عليها مقومات الزعامة؛ كما يوضح الأخطار المحدقة بشخص الزعيم؛ مستخدما أسلوب التداعى الذى يعتمد فيه على استلهام الشخصيات التاريخية التى صنعت العظمة فى دفاتر التاريخ، ليقارن بينها وبين شخصية النحاس. وبالطبع، طالما كان الحديث عن الزعامة، لم يكن هناك مفر من التعرض للزعيم الكبير سعد زغلول، والذى تتلمذ النحاس سياسيا على يديه.

زعامة سعد

ووصف حافظ بزوغ زعامة سعد زغلول قائلا: جاءت به العناية الإلهية فَلَّاحًا من أهل القُرَى لتستكمل فيه لوازم المحيط، ويتناسب مع أغلبية البيئة، ويشب فى أقوى أفق وأصح جو وأوفق وسط؛ ولكى ينشأ صُلْب العود من بدايته، قوى البدن من حداثته، متفتح الصدر للعواصف من طفولته، يمرح فى الحقول، ويرتع فى الغيطان، ويسبح فى الجداول والأقنية، ويجالد الأقران فى الصراع غاضبًا أو لاهيًا.

جاءت به فلَّاحًا قوى العصب، سليم النَّسب، منتظم حركة القلب، مفتول الذراع، ممشوق القَدّ، شديد الجَلَد، مَضْمور الجَسَد، فى عينيه عمق، وفى وجهه أسد؛ لكى يخيف ويثير الرَّهْب إذا ما حان الدور ووَجَب، وحتى يتحمل مطال المرانة، ومراحل التدرب، إذ جعلت فى خطتها ألا تعجل به شابًا فتيًا، ولا نحيلًا ضاويًا، وإنما قدرت أن يتولى الأمر وهو شيخ جاوز الكهولة، وعَدَى الشباب؛ لتكون آيته أنه الشيخ الشاب، قويًا على المحنة والمصاب، جَلْدًا على الصدمات والخطوب، لا حافلًا بالشدائد ولا مباليًا.

وقد جاءت به كذلك «أزهريًا»؛ ليدرس القرآن، ويأخذ عنه قوة البيان، ويكتسب قوة التعبير، وجزالة اللفظ، ولغة الجهاد، وأسلوب الإغراء، وسحر الترغيب، وجلال الترهيب؛ بل ألقت به فى صحن الأزهر على حرارة اللهفة على العلم؛ لكى ينضج أكمل نضوج، وينصهر فيه أحرَّ مُنْصَهَر، ويطيب كل مطاب، ويكب على الكتاب، ويتمرن على الجدل والمناظرة، والمعارضة والمحاورة، والنظرية والبرهان.

وأضاف فى حديثه عن زعيم ثورة 1919: أرادت الأقدار لسعد أن يدخل وظائف الحكومة، وأن يتقلب فى مناصبها، ويتنقل فى كبارها وخطيرها؛ حتى بلغ مكان «الوزير» فيها، فإذا ما تحدث بعد ذلك عن سيئات الاحتلال ومناكره وجرائمه وكُبَره، كان لكلامه قيمة، ولحديثه خطر، ولنقده أثر؛ لأنه كلام وزير جَرَّب واختبر، ومَثَّلَت له العظات والعبر، وشهد كل ذلك السوء من قريب.

وكانت مباشرة سعد للوظائف مقتضيةً منه كذلك أن يستكمل ما نقصه، ويستوفى ما لم يكن أصابه، ويضيف إلى قوة أزهريته لوازم عصريته، وثقافة جيله وعلوم بيئته، فلما دخل القضاء الأهلى حيث المرجع فيه للقوانين الفرنسية، احتاج الأزهرى الذى لم يدرس غير لغة دينه أن يدرس لغة قوانينه؛ فتعلم الفرنسية، وأعانه تعلمها والإكباب على دراستها والانكماش فى استيعاب دقائقها ومطالبها على توسيع دائرة قراءته، إذ فتح أمامه آفاقًا جديدة من العلم، وكشف حياله عن أفكار بِكْر من المعرفة وأفانين من الثقافة، ونُدُحات مترامية للبحث والاستخلاص، والاقتباس والاستقراء.

كان سعد جديدًا فى كل ما سلك نفسه فيه، كان جديدًا كأزهرى؛ لأنه نبغ كاتبًا، وأندر ما يكون الأزهريون كُتَّابًا. وكان جديدًا كمحام؛ لأنه دخل هذه الصناعة وهى منحطة المستوى يومئذ قليلة الشأن سيئة السمعة فرفع مستواها، وعظَّم شأنها وأحسن سمعتها، فلما عطف على القضاء زانه وسما به، وصان كرامته، وحرص على استقلاله، وله فيه أحكام جديدة ومواقف مشهودة، ليس هذا الكتاب مجال ذكرها، فكان ذلك كله جديدًا فى القضاء، فانتبه العصر له، وأحسه الجيل الذى يعيش فيه، والتفت الدولة نحوه لترى من هذا الرجل الجديد الذى برز على مسرح الحياة، واستحوذ على الاحترام فى وسطه والإعجاب! فلم تستطع إلا أن تعجب هى أيضًا به، ولم تتمالك هى كذلك من احترامه؛ فرفعت وظيفته فى القضاء، ثم لم يبق أمامه إلا كرسى الوزارة فبلغه بعد بضع سنين.

وكان سعد جديدًا كوزير، إذ عُهِدَ إلى «الأزهرى» القديم بوزارة المعارف الحديثة، فإذا هو فى العلم رجل عصرى مجدد، ووزير مبتكر مستحدث، وإذا هو وطنى جديد كذلك، وسياسى من طراز آخر غير ما ألفت الدولة من قبله، فإن أزهريته القديمة لم تمنع أن ينادى بجانب جامعة الأزهر إلى تأسيس جامعة حديثة للعلم الجديد، حتى يتحول بالغرض الذى رمى إليه الاحتلال من التعليم بجعله أداةً للوظائف، وإقامة المدارس معامل لتفريخ الموظفين، إلى غرض جديد وهو التفوق فى العلم للمنفعة العامة، والاستزادة من الدراسة لخير الشعب ومصلحة المجموع وخدمة البلاد.

كان سعد وزيرًا مرهوبًا، متكبرًا كبرياء المقدرة لا كبرياء الغرور، وطنيًا حريصًا على حقوقه كوزير، محافظًا على مكانه كمصرى، مستقل الإرادة كرئيس، ممسكًا بكرامته لا ينزل بها يومًا إلى الإنجليز، فرآى فى المعارف دنلوب المستشار يريد أن يسير معه كمسيرته مع الذين من قبله وزراء، له هو السلطان الفعلى ولهم هم البصمة والإمضاء، وهو كل شىء وهم ليسوا شيئًا بجانبه، وعنده هو كل السلطان وعندهم هم الخور والتسليم والإذعان؛ فوقفه سعد حيث ينبغى أن يقف، واسترد منه المزيد من سلطانه، وقصره على ما ينبغى لمثله فى حدود الاختصاص، ونطاق الواجب، ودائرة القانون.

وهكذا كان سعد فى الوظائف جديدًا، أدخل عليها فى شخصه ومسلكه وتصرفه العناصر الخليقة بها، والمطالب التى كانت تنقصها، فراع الإنجليز أن يروا فيه هذه الشخصية الجديدة، فقال قائلهم –وهو لورد كرومر– فى خطاب وداعه بدار الأوبرا فى سنة 1907 كلمته المشهورة: «إنى لأذكر –أيها السادة– اسم رجل لم أشتغل معه إلا من عهد قريب، ولكن معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن آحترمه احترامًا عظيمًا، وإذا أصاب ظنى ولم أخطئ، فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعد زغلول باشا مستقبلٌ عظيم فى سبيل خدمة هذه البلاد؛ لأنه قد أُوتى جميع الصفات اللازمة لخدمتها، فهو رجل صادق، كفء، مستقيم، مقتدر، بل هو رجل شجاع فيما هو مقتنع به.»

زعامة سعد وظهور النحاس

عند الحديث عن ثورة 1919، وصف حافظ سعد زغلول بأنه "البطل المنتظر، والقائد الثورى المرتقب الذى ظلت الأقدار تهيئ الأسباب لظهوره، وتعد المناسبة لمُتَبَدَّاه ومطلعه"؛ لكن فى تلك الفترة نفسها، كان الزعيم الكبير قد بلغ م الكبر مبلغه، لكن "الشيخ كان ينبغى أن يظهر حتى مع الشيخوخة؛ ليكون حافزًا الشباب، مستثيرًا الأقوياء، مستحميًا قلوب الصغار والكبار على السواء، وفى ظهور البطولة على الناس مفاجأة قوية تسيهم المخاوف والحرص على الحياة، وتبعث فيهم أكبر الشجاعة، وتثير لديهم احتقار السلامة والأمن والسكون".

وفى تقديمه لظهور زعامة النحاس، يقول حافظ: "كان من بين أصحابه رجل أراد الله أن يصحبه من البداية، ويلازمه فى أكتف غبار المعركة، ويسايره فى أشق مراحل الجهاد ليتدرب عليه، ويمزج حياته بحياته، ويأخذ عنه ما أرادت الأقدار أن يأخذه ليجمع إلى الدربة مواهبه، وينمى المواهب برياضتها فى جواره، فكان ذلك من توفيق الله الذى اقترن بزعامة سعد ورعاها، وصحب قيادته وماشاها؛ لكى يترك التراث الفخم مطمئنًا عليه، ويغادر المكان واثقًا من مآله، ويدع الزِّمام مستريحًا إلى الكف التى ستتولاه فى حزم ومقدرة وقوة وإيمان.

وكان ذلك الرجل الذى أعدته الطبيعة لمثل ما أعدت سعدًا من نشأته وتكوينه هو «مصطفى النحاس»؛ فإن من توفيق الله الذى لازم سعدًا طيلة زعامته أنه وجد الشخصية الصالحة التى تتسلم تركته الروحية، وتتلقى تراثه الوطنى العظيم، وأنه اهتدى إلى الرجل الخليق بالموضع قبل أن يفرغ له بوقت طويل، قدرته العناية الإلهية كافيًا للمرانة على مطالبه، والرياضة على واجباته ومشاهدة تجاريبه، ومعاينة وسائل تصرفه، ولكى يقاسم صاحبه الشدائد التى تقع فى طريقه، والمتابع التى يقاسيها فى مراحل جهاده، حتى ينضج قبل أن يتلقى مقاليد القيادة، ويكتمل من جميع الجهات قبل أن يستوى فى الموضع المقدور له فى خطة الكون ومهيآت الظروف وتدبير السماء.

وقد كان من حسن الحظ بالنسبة لسعد أنه جاء ليأخذ فى يده زمام النهضة، ويتولى فى الأمة أمر الزعامة، ولم يكن أحد قبله عليها، ولا وقعت لإنسان من قبله، ولم يسبقه نموذج من نماذجها، ولا ظهر لون من ألوانها، ولا قالب من قوالبها حتى يمكن أن يكون ثَمَّ محل لموازنة بينه وبين الآخر الذى تقدمه، ولا مجال للمقارنة بينه وبين الذى استبقه. ولم تكن الأذهان متأثرة بشخصية ماضية، أو عظمة ذاهبة، أو زعامة سالفة؛ فهى لا تزال تحت تأثيرها، مليئة الذاكرات بصورها، مزدحمة الخاطر بما ارتسم عليها من أفاعيل نفوذها وسلطانها، وإنما أتى سعد فى الزعامة منقطع النظير أوحدَ، قائمًا بمفرده على جلاله، يَبْدَهُ العصر، وينفرد بإعجاب الجيل، ويستأثر بمحبة الملايين.

ولكن كان من المشقة على الرجل الذى هيأته الأقدار ليخلفه على الموضع ويشغل المكان من بعده أن زعيمًا كسعد تقدمه، وقائدًا وطنيًا عظيمًا كسعد ظهر قبله، وأن ذلك قد يفتح على أبواب من المقابلة، ووجهات من الموازنة، قبل أن يستقر به موضعه، وتظهر فعَاله، وتتجلى مزاياه، وتتكشف مواهبه، ويبدى ما عَنده من جديد".

ووفق الكتاب الذى يُعَد تأريخا لأحد معاصرى الزعيمين؛ وهو كاتب، وناقد مسرحى، ومناضل سياسى سخر قلمه لخدمة مبادئه السياسية، وهو المترجم الذى تلألأت ببديع ترجماته ميادين الفكر الأدبى. فقد سطعت شمس النحاس عقب انقشاع الغيوم بعد وفاة سعد. يقول: لم تكد الصدمة تخف رويدًا حتى بدأت اللهفة تخف شيئًا فشيئًا، ومضت الحيرة تذهب قليلًا قليلًا، وإذا اسم «مصطفى النحاس» يتحير على الشفاه، وتجرى به الألسنة، ويدور فى المجامع، ويطوف الندوات، فيلاقى الرضا، ويجد القبول، ويشهد الإجماع عليه والاتفاق، ويبتسم الناس بمرارة عاجبين لأنفسهم، كيف كانوا لهذه الشخصية الصالحة الموافقة غير ذاكرين.

وكان مصطفى النحاس عن الديار غائبًا يوم وفاة سعد، فبوغت بالنبأ العظيم وهو فى أوروبا أفجع المباغتة، ونزل منه الخبر الصاعق أرهب منزل؛ لأن المرض الذى أصاب سعدًا لم يطل عليه، والعلة التى عاجلته لم تستبق لها بوادر وسمات غير كلام سعد نفسه فى ختام الدورة البرلمانية التى سبقت مرضه، فقد كان من خلف ألفاظه أو فى تضاعيف كلماته إيذانٌ بَيِّن، وإحساس سابق بوداع، وكلمة نوى بعيدة وفراقٌ؛ حتى لقد عاد الناس حين وفاته يذكرونها، ويعجبون كيف لم يلتقطوا هذا المعنى الخفى فيها، وراحوا لتعزية أنفسهم يدعونها «خطبة الوداع»، وهى فى الواقع خطبة النبوءة، وإلهام الروح، وسبق الشعور، واختلاج الغيب فى الوجدان.

وأضاف حافظ: لعل كلمة الأقدار فى ترتيب الحوادث على هذا السياق الأليم أن يقر الناس مصطفى النحاس على خلافة سعد، وتجتمع نفوسهم على أنه بالزعامة من بعده الخليق الأوحد. وكما كان الأمر من شأن سعد ذاته، فقد نودى بزعامته وهو غائب فى منفاه وغربته، وتوافت له شهادة الأمة ببطولته قبل أن يسألها، أو ينبعث إلى طلبها، أو يحتال بنفسه لها – كان أمر مصطفى كذلك بغير خلاف، فقد التفتت الأذهان إليه وهو فى سفره، وتذكرته النفوس فى منزحه، وأقرته القلوب فى غيبته، فلم تكد قدمه تطأ أرض وطنه حتى تلقاه الناس مطمئنين إليه، معترفين بجدارته لذلك الموضع العظيم.

لقد كانت بيعة هذا القائد الوطنى الجديد «طبيعية» لم يَشُبْها أدنى تكلف، ولم تجر من حولها أقل محاولة، وإنما اختارت العناية الإلهية فأمن الناس على اختيارها، وتقدمت الأقدار فانتخبت من أعدته لهذا اليوم وهيأته، فأقرت مصر هذا «الانتخاب الطبيعى» مستريحة إليه مطمئنة، واعتمدته اعتماد الثقة واليقين.

معركة الديمقراطية

يصف حافظ المعركة الطويلة التى خاضها الزعيم سعد زغلول، وشارك فيها ثم استكملها تلميذه ورفيقه الزعيم مصطفى النحاس؛ وكذلك يتناول العقلية السياسية الراجحة للزعيمين.. ويصف سعد زغلول بأنه "الزعيم الدستورى الذى مَكَّنَ لجذور هذا النظام من التأصل والتغلغل فى صميم حياتنا، وكان هو البانى لصرح حياتنا النيابية وهيكلها العظيم".

وأضاف: فقد أظهرته الطبيعة يومئذ رجلًا جديدًا فى الواقع، وزعيمًا عجيبًا، كأنما كأن طويل العهد بالروح النيابى، عريق المحتد فى الدراسة البرلمانية، واسع العلم بأوضاع هذا النظام وتقاليده ومطالبه؛ إذ كان أول من ألغى «الأقدمية» فى تقلد المناصب، وأول من أثبت حق النبوغ فى الاستباق، وأول من أقر «الكفاءة» ووجوب تقديمها على كل اعتبار.

لقد أعطى سعد زغلول أمثلة جريئة، وخطا خطوات قوية فى سبيل تعزيز الديمقراطية، فجعل من «الأفندية» وزراء، وحطم بذلك القيم المظهرية التى كانت «للباشوات»؛ وأثبت للشعب أن المخلص يجد أرفع الأمكنة، مهما كان فى الأصل موضعه؛ وأن الكفء يظفر بالمحل الخليق به، مهما كانت من قبل درجته، وقد كان تقرير هذه القاعدة فى بداية الأمر مستغربًا، حتى إن فريقًا من المستشارين فى وزارة الحقانية نكروه وتبرموا به، وصارحوا سعدًا برأيهم فى شذوذه، واستنكارهم لخروجه عن المألوف؛ إذ لم يكن أحد يومئذ يتصور أن محاميًا من عُرض المحامين يصبح وزيرًا للقضاء، ولكن سعدًا الديمقراطى العظيم لم يعتد بغضبهم، ولم يحفل استنكارهم، ومضى فى التمكين للديمقراطية غير متخاذل ولا متردد.

وفى مجلس النواب لم تلبث مع هذا الحافز الجديد، وعلى شكة المهماز فى الخاصرة، أن ظهرت نباغات باكرة، وتجلت كفايات سريعة، وبدت استعدادات خصيبة للروح النيابى الجديد؛ حتى لقد كان موضع العجب أن تنبع الحياة الدستورية هكذا وشيكًا لدينا، ويظهر التقاطنا الزئبقى لجوهرها وحسن تقاليدها وعرفان أوضاعها فى تلك الفترة القصيرة العاجلة من التجربة والاختبار.

وفى الوزارة الديمقراطية المحدثة تقلد مصطفى النحاس القاضى السابق منصب وزير المواصلات، ومن قاض إلى وزير مسافة واسعة، وشوط لم يكن أحد ليقطَّعه فى النظام القديم، ولكنها كانت أقصر من غيرها بكثير فى العهد الجديد، واستحقاقًا تامًا لرجل لم يكن يدرى يوم غادر وظيفته مضحيًا بها، ماذا سيحل غدًا به، وأى أخطار الجهاد على الأيام مصيبة، وأى عقاب مرهوب سوف يعد له، ذلك الرجل الذى ترك كل مسئولياته الخاصة جانبًا، وأقبل على الثورة الوطنية بكل جوارحه، غير مبال بما قد يصيبه فى سبيل بلاده، وقضية وطنه المعذب الأسير.

ولكن كذلك طلبت الديمقراطية الجديدة، وهى يومئذ فى أشد حماستها وأصدق أدوارها وحميتها، الخدام المخلصين لبلادهم، والمجاهدين الأبرار بوطنهم؛ فأشارت الأقدار إلى مصطفى فى الأكفاء المستحقين؛ لأنها كانت مُعدَّته ومحتفظة به لحراسة هذه الديمقراطية نفسها التى عرفت له قيمته، وشهدت له بكفايته، فإن حياة مصطفى السياسية ظلت كلها دفاعًا مستمرًا عن الدستور، وكفاحًا مستطيلًا عن النظام الديمقراطى، وذيادًا لا يفتر ولا يهدأ عن الحياة النيابية؛ حتى لقد تحمَّل مصطفى فى عهد زعامته من أجل الدستور ما لم يتحمل سعد مثله، وقاوم فى سبيله مقاومة يدفعها الإيمان القوى العميق الذى لا يعرف تراجعًا، ولا يحس يأسًا ولا يفكر فى انزواء.

وقد أثبتت الحوادث فى خمس سنوات متعاقبة خلال زعامة مصطفى للأمة ورياسته للوفد وقيادته لصفوف الشعب وجموعه أن مصطفى قد وهب حياته كلها لحراسة الدستور، وحماية الحكم النيابى، غير منَّ أمام كل تلك القوات المعادية التى وقفت متراصَّة حياله لتصد تياره، ولا يائس من استرداد دستور الأمة بعد إلغائه، بل لقد بنى سعد الديمقراطية فى مصر، وجاء مصطفى ليتولى حراستها؛ فكان الحارس الثقة الأمين.

ونجحت الديمقراطية من بدايتها، وصحب قيام البرلمان فى سنة 1924 توفيق كبير، وأثمرت الحياة النيابية ثمرات طيبة، كان من بينها إصدار قانون الانتخاب المباشر، وراح سعد يعد العدة للمفاوضات التى ورد ذكرها فى خطاب العرش؛ وإذا بمكيدة حقيرة تدبر لاغتيال حياته وهو يوشك أن يركب القطار فى الثانى عشر من شهر يوليو سنة 1924. وقد تلقى سعد حركة ذلك المفتون الطائش الذى صوب الرصاص إلى صدره بأروع ما تكون الشجاعة مظهرًا حيال الموت وخطره، ورجفت البلاد من شناعة الحادث بقدر ما أعجبت برباطة جأش زعيمها العظيم، وبدا هذا الحادث يومئذ بوادر رجعية شريرة قاتلة مجرمة تعمل تحت جنح الظلام. وأخفقت المفاوضات التى جرت بين سعد وماكدونالد؛ إذ جرى هذا معه على منهج كرزون من قبله وملنر، وظن آنه مستطيع أن يتغلب على سعد؛ فأبى سعد التسليم ورفض المفاوضات وفيًا أبيًا، وعاد إلى بلاده مرفوع الرأس كريمًا على نفسه وبلاده.

وعلى أثر عودته كثرت الدسائس واشتدت المكائد للدستور والحكم النيابى، وكان حسن نشأت باشا يومئذ وكيلًا للديوان الملكى؛ ففكر سعيد مليًا فى الأمر ليجد له علاجًا حاسمًا، فكانت مشورة مصطفى فى هذا الموقف الخطير أنه يجب أن يصان الدستور قبل كل شىء، وينبغى الحرص على قدس النظام النيابى قبل كل اعتبار، وأنه إذا لم تجب المطالب التى تتقدم الوزارة الدستورية بها إلى الملك، فلا ينبغى البقاء فى الحكم لحظة واحدة.

وعمل سعد برأى مصطفى، فذهب إلى القصر فى ذلك اليوم المشهود الذى اجتمعت فيه ألوف مؤلفة من الخلق فى ساحة عابدين وهم يهتفون هتافًا دوَّامًا مدويًا: «سعد أو الثورة»، فقدم مطالب الوزارة إلى الملك مهددًا بالاستقالة إذا هو لم يجب إليها.

فى هذه الوقفة الجليلة اجتمعت مشورة مصطفى وشجاعة سعد، فتناسبتا وتشابهتا روعةً وجلالًا. وكانت تلك المشورة وليدة إخلاص متناه للفكرة، وسمو أدب فى الوطنية السياسية، ووفاءً عظيمًا للدستور، لا يتردد أمام أى اعتبار شخصى، ولا يتخاذل حيال أى واجب كبير، ولا يخشى جاه الحكم أن يزول عنه، أو أعنة السلطان أن تذهب من كفه؛ وهو لم يمكث فى مقعد الوزارة غير بضعة شهور، وما هو بالغنى العريض المال حتى يتطوع للتخلى عنه، ولا يبالى تركه؛ ولكنه كان الوطنى المؤمن بالدستور الحريص على النظام النيابى، فلم يلبث حرصه على الدستور أن تغلب عنده على كل عامل سواه، فرضى ترك الحكم ونصح باستقالة الوزارة، إيثارًا للدفاع عن الدستور والذود عن قداسته، على كل مغريات البقاء فى الحكم والتشبث بالنفوذ والسلطان.

سعد زغلول فى رواية «عودة الروح»

الرمز والحلم ومفتاح حضارة الشعب الأصيل

«لا يمثل امتدادا لبطولات قريبة تنتمى إلى العصور القبطية والإسلامية، ذلك أنه ينتمى إلى الجذور البعيدة السابقة للتاريخ القريب. زعامة خارقة توحد المصريين وتعيد إليهم مصريتهم، وبفضل هذه المصرية الصافية الخالصة تتراجع الانتماءات الدينية وما قد يصاحبها من توتر وصراع».

بقلم- مصطفى بيومى

الأسرة التى يقدمها توفيق الحكيم فى "عودة الروح" هى الشعب المصرى متعدد الطبقات فى إطار الانتماء الواحد: الشعب الذى قد يعرف كثيرا من التمييز والاختلاف بين طبقاته، لكنه لا يعرف الفرقة والتشرذم. المدرس وتلميذ المرحلة الثانوية والظابط وطالب الهندسة والخادم وربة البيت؛ جميعهم بمثابة العائلة المتماسكة التى تعيش فى واقع يغلفه البؤس، ويغلب عليه الحرمان الذى لا يزيح الفكاهة والمرح، ولا ينفى الإقبال على الحياة والتشبث بها.

تبدأ أحداث الرواية قبل شهور قليلة من اشتعال ثورة 1919، لكن أحدا من أفراد "الشعب" لا يبدى اهتماما خاصا بالسياسة، ولا ينشغل بما يقع من أحداث خارج نطاق البيت الشعبى بكل همومه وعواطفه ونثريات إيقاع الحياة اليومية، بل إن الحرب العالمية الأولى، التى تنتهى لتوها بإعلان الهدنة، لا تمثل مادة للحديث والحوار بين أفراد "الشعب"، وغاية ما نجده عنها إشارة عابرة ترد على لسان الخادم مبروك، فإذ يقول له الرئيس الشرفى للأسرة حنفى أفندى:

"– وانت كمان إيش كان عرفك بأكل الإنجليز؟"

يجيب مبروك، وهو "خادم شرف" لا ينفصل عن أفراد الأسرة:

"– أمال إيه!.. مش ابن عمى أخدوه فى السلطة أيام الحرب مع الجمال والحمير والأنفار اللى أخدوها؟".

لا مرارة فى كلمات مبروك، فكأن "السلطة" لا تمثل عبئا على الفلاحين من أمثال ابن عمه، وكأن اغتصاب الإنجليز للبشر والجمال والحمير لا يعنى شيئا!.

هذه اللا مبالاة تؤكد أن أفراد "الشعب" لا يهتمون بالسياسة والقضية الوطنية، ذلك أن جارتهم سنية، التى ترمز إلى مصر على نحو ما، هى همهم المقيم واهتمامهم الأكبر، وعلى الرغم من أن "محسن" يشارك الجميع فى الانصراف عن السياسة، فإنه الوحيد الذى يدمن الثقافة ويراود أحلاما فكرية تتجاوز العادى والمألوف من الأحلام. يشير محسن إلى نفسه، وإلى صديقه الحميم عباس، ويقول لرفاقه فى المدرسة مفاخرا:

"– بكره إحنا اللى نكون لسان الأمة الناطق!..

ونظر إلى عباس كأنما يزيده تشجيعا وتأكيدا، وأراد أن يستمر، ولكن خطرت له عبارة أبرقت لها أساريره.. عبارة تعتبر لمثله ولمن فى سنه ومعلوماته وحيا، فاندفع قائلا:

– عباس!.. وظيفتنا بكره حا تكون التعبير عما فى قلب الأمة كلها.. فاهم؟.. يا سلام!.. لو تعرفوا قيمة القدرة على التعبير عما فى النفس.. التعبير عما فى القلوب؟!".

الأمة الهادئة الساكنة الوديعة ليست خرساء على الرغم من صمتها الطويل وما قد يوحى به من سلبية، وقلب الأمة مسكون بالكثير من الأحلام والتطلعات الغائمة الغامضة، لكن المناخ المستقر الراكد لا يتيح الفرصة للتعبير، ولا يسمح بالتحول الجذرى من مقام الصمت إلى انطلاقة البوح.

مع بداية الجزء الثانى من الرواية، تبدأ بوادر التحرر من الانغلاق الذاتى والهموم الشخصية المحدودة إلى آفاق أكثر رحابة وأعظم اتساعا، وفى رحلة القطار الذى يركبه محسن من القاهرة إلى دمنهور، يقدم توفيق الحكيم مشهدا دالا ينبىء عن متانة الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين فى مصر، وهى وحدة مهددة ببعض المنغصات وآثار الفتنة وسوء الفهم.

أحد "الأفندية" من الركاب، وهو مسيحى، يوجه نقدا لاذعا لسلوك الأوروبيين الاجتماعى، ويأخذ عليهم الانكفاء الأنانى المتطرف على ذواتهم، وينبرى شيخ من مستقلى القطار معلقا:

"– بلاد ما فيهاش إسلام!.

فلم يجب الأفندى وتغير لون وجهه قليلا، ومد يده متشاغلا بنفض تراب السفر عن طربوشه، فى شىء من الخجل والامتعاض!.

وعندئذ لاحظ أحد الركاب فى معصمه علامة الصليب فأيقن أن الشيخ قد فاه عن حسن قصد بكلمة أُسىء فهمها فتدخل مصلحا بلطف:

– قصدك يا سى االشيخ بلاد ما فيهاش قلوب.. مش زى بلدنا سواء أقباط أو مسلمين.. كلنا إخوان..

ولاحظ أيضا راكب آخر ذلك، وكان من المتنورين، فدخل فى الحديث وأخذ يستدرك الكلام بكياسة حتى وصل إلى إفهام الحاضرين، أن كلمة "إسلام" الشائع استعمالها وترديدها فى مصر بين بعض الأوساط؛ ليس لها فى الحقيقة أى صبغة دينية أو طائفية، وإنما معناها ومغزاها عاطفة الرحمة وطيبة القلب وارتباط الأفئدة، عواطف يجدها الإنسان فى مصر ولا يجدها فى أوروبا، حيث فشا فى نفوس الإفرنج سم النفعية، وعم التكالب على المصالح الشخصية الفردية".

المصرى المسيحى لا ينسجم مع المسيحيين الأوروبيين ولا تروقه أفعالهم التى يراها مستهجنة تعانى من النشاز، وهو يجد نفسه ويحقق ذاته عندما يتعامل مع مواطنيه المصريين دون نظر إلى انتمائهم الدينى. المسألة إذن ليست فى العقيدة الدينية، لكنها فى الهوية الوطنية التى تخلق الثقافة والقيم والعادات والتقاليد ونمط الحياة الاجتماعية. مثل هذا التآلف الحميم بين المسلم والمسيحى فى مصر، قد تهدده كلمة طائشة تصدر بنية حسنة أو عن قصد سىء، ولا مناص من التدخل الشارح للكشف عن خبايا ودلالات بعض المفردات التى يتم تداولها بشكل عفوى، ويمكن استثمارها فى إشعال صراع مدمر.

لم تكن الوحدة الوطنية ضائعة مهدرة قبل ثورة سنة 1919، لكنها كانت مهددة لا تنجو من القلق والتوتر والتوجس. الوطنية المصرية الصافية الخالصة كانت فى حاجة إلى مواجهة الاختبار وتجاوز التحدى، فعند المواجهة يظهر المعدن المصرى الأصيل وتتلاشى الفروق والاختلافات الطارئة. الانسجام الوطنى ليس بالشىء المستغرب فى حضارة عريقة مثل الحضارة المصرية، وفى رحلة القطار نفسها يقول الأفندى المسيحى مفاخرا :"أهل مصر شعب أصيل عريق، فين 8 آلاف سنة وإحنا فى وادى النيل!.. وكنا نعرف الزراعة والفلاحة، ولنا قرى ومزارع وفلاحين وقت ما كانت أوروبا لسه ما وصلتش حتى لدرجة التوحش".

قد يوحى الظاهر المادى المباشر بالتخلف، وربما تكشف معاناة المصريين عن تراجع لافت مقارنة بالغرب، حال انصراف المعنى الحضارى إلى الإنجازات المادية ومستوى الإنتاج الاقتصادى والتقدم العلمى، لكن اليقين القابع فى أعماق المصريين جميعا أنهم شعب أصيل عريق، وأنهم قادرون على التطور وتجاوز الأزمات المتراكمة المصنوعة بمعرفة الغزاة والوافدين.

فى أيام الإجازة التى يقضيها محسن مع أسرته الريفية الثرية، عديد من المشاهد والممارسات التى تكشف عن معاناة الفلاح المصرى قبل الثورة. يتعرض لاضطهاد وازدراء كبار الملاك الزراعيين، ويعانى من التفاخر الكاذب الذى يمارسه بدو لا يملكون حضارة أو ثقافة، ويظنون أنهم الأكثر أصالة والأعظم مكانة والأسمى تاريخا. يكابد الفلاح المصرى المعدم من مشقة بادية تتجلى فى سوء المسكن وقذارة الملبس وتفاهة الطعام، لكن هذه المظاهر جميعا، وهى ترجمة صادقة للواقع البائس ماديا، لا تنفى أن الحضارة كامنة فى الأعماق وتنتظر الفرصة للانطلاق والتحقق.

كبار ملاك الأراضى يحتقرون الفلاحين وينظرون إليهم كأنهم جنس أدنى، واستقبال الفلاحات الحافل لأم محسن تقابله جفوة ظاهرة من الأم التركية المتغطرسة المتعالية، وإذ يعاتبها محسن فى تأثر يليق برقته ورومانسيته:

"– ليه يا نينة تطرديهم؟.. حرام"

ترد بجفاء وقلة اكتراث:

"– حرام إيه.. دول فلاحين!".

"دول فلاحين"!، بما يصاحب المقولة من جفاء ولا مبالاة، تجسد الفجوة الطبقية الهائلة بين الأقلية التى تملك كل شىء والأغلبية الساحقة الكادحة التى لا تملك شيئا. الاستغلال ليس طبقيا اقتصاديا فحسب، لكنه أيضا قهر عنصرى يسلب إنسانية الفلاح ويهبط بشأنه إلى درك سحيق!.

لا تتبع معاناة الفلاحين من معاملة كبار الملاك وحدهم، فهم عرضة لغرور البدو وتفاخرهم الكاذب. يقول محسن للخفير البدوى عبد العاطى، الذى يرفض بإصرار أن تتزوج أخته من فلاح:

"– بقا البدوى أحسن من الفلاح يا عبد العاطى؟

فأجاب الخفير وهو يحدق به مستغربا جهله:

– كيف يا بيه البدوى مثل الفلاح؟!

– إيه الفرق بين الاتنين؟

– كيف يا بيه.. كيف؟.. البدوى أصيل!..

– والفلاح مش أصيل؟..

– الفلاح عبد بن عبد.. إحنا بدو ما نرضى الضيم!"

لا يرقى الفلاحون العاملون الكادحون إلى مرتبة البدو الذين يعيشون متطفلين على هامش العملية الإنتاجية ولا يعرفون حضارة أو تاريخا!، والفارق بينهما من منظور البدوى المتعصب هو "الأصل": الفلاح عبد يرضى بالظلم والاضطهاد، والبدوى حر لا يصبر على الضيم والمهانة. قد يوحى الظاهر السطحى بصدق ما يقوله عبد العاطى، لكن الجوهر المستتر فى حاجة إلى ثورة تنعشه وتعيد إليه الروح والقدرة على إعادة الأمور إلى نصابها.

ولأن محسن هو المثقف الحالم الذى يراود فكرة أن يكون لسان الأمة الناطق والمعبر عن قلبها وضميرها، فإنه يتعاطف مع الفلاحين ويمجد حياتهم من منطلق رومانسى متطرف الحماس، يخاصم معطيات الواقع المادى ويحلق فى خيالات وأوهام أقرب إلى الشطحات الفنية منها إلى التحليل المنطقى المقنع.

فى مقابل رومانسية محسن المفرطة، يظهر عالم الآثار الفرنسى ليمزج بين الموضوعية والرومانسية، ذلك أن تمجيده المثالى لا يخلو من منطق يتكىء على معطيات التاريخ والقراءة الواعية لأعماق الشخصية المصرية التى لا تخلو من الصدأ وليد الإهمال، ولا تنجو أيضا من الآثار السلبية الوخيمة لقرون القهر والكبت.

يقول العالم الفرنسى لزميله مفتش الرى الإنجليزى :"إن هذا الشعب الذى تحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله!.. إن الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم!.. والقوة فى نفسه ولا يعلم!.. هذا شعب قديم: جىء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة، من تجارب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى!".

"علم القلب" على الرغم من "غيبوبة العقل"، والحكمة المتوارثة الدفينة، والقوة الحبيسة فى انتظار مثير منبه مفجر يخرج بها من القمقم ليبدأ الطوفان. الفلاحون هم المصريون الحقيقيون، ومصر ليست إلا كتلة فلاحين هالة تختزن ثورة طال عليها الصبر. فى اللحظة التاريخية المناسبة، تصدر عن هؤلاء الفلاحين أفعال خارقة تشبه المعجزات. متى وكيف تأتى مثل هذه اللحظة؟

هذا هو السؤال!.

العالم الأثرى الفرنسى لا يقرأ غيبا، لكنه يطالع تاريخا يمكن دمجه مع الواقع والارتفاع به إلى مرحلة النبوءة–النذير، وتتألق كلماته التى تحذر دولة الاحتلال من الثقة المفرطة فى استقرار أبدى لا يعرف التغيير :"احترسوا من هذا الشعب، فهو يخفى قوة نفسية هائلة!".

متى وكيف تنطلق هذه القوة؟!، وما الذى يحتاجه الفلاحون المصريون لإعادة رسم وتشكيل الخريطة الظالمة؟. كيف تشتعل الثورة يبدأ الانقلاب الذى يراهن السطحيون على أنه لن يقع أبدا؟!.الإجابة يقدمها الفرنسى المولع بمصر والمصريين:

"– أجل يا مستر بلاك!.. لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم، إن القوة كامنة فيه، ولا ينقصه إلا شىء واحد!.

– ما هو؟..

– المعبود!.

فنظر الإنجليزى إليه نظرة لا يدرى: أمعناها الاستيضاح أم الموافقة!..

فأجابه الفرنسى بعد هنيهة:

– نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية.. عند ذاك، لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب، والمستعد للتضحية، إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام!".

المعبود–الزعيم هو ما يحتاجه المصريون لينفضوا عن كاهلهم عبء الصبر الطويل على ما لا يرضونه من المظالم، والمعبود المستهدف ليس بعثا وإعادة إنتاج للوثنية القديمة، لكنه "رمز" يلتف حوله الجميع ويسيرون وراءه ويراهنون من خلاله على الغاية والمثل. لن تصل اللوحة إلى تمامها ومنتهاها إلا بعد بزوغ الرمز والمفتاح، فمثل هذا الزعيم المنتظر هو القادر على قيادة جموع تملك فى أعماقها الحضارة والحلم، وتجهل الاتجاه والطريق.

وكأنما بلا سابق إنذار، تشتعل الثورة وتصح نبوءة الفرنسى البصير. تنهض مصر بعد استغراقها فى سبات طويل، وتولد زعامة سعد زغلول التى تتمثل فيها كل العواطف والأمانى:

"لقد صدق نظر الأثرى الفرنسى..

أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى.. أو معجزات!.. أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون، ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة!.. لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد..!

لعل هذا الأثرى الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أى إنسان!..

ربيع مصر

فى شهر مارس.. مبدأ الربيع.. فصل الخلق والبعث والحياة.. اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار!..

وكذلك مصر أيضا.. قد حبلت وحملت فى بطنها مولودا هائلا.. وها هى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد.. إنها كانت تنتظر –كما قال الفرنسى– تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يُبعث من جديد.. ويُبعث هذا المعبود من صلب الفلاح!".

معجزة الأهرام تتكرر من جديد، فليست الثورة الشعبية الخارقة إلا معجزة غير مسبوقة فى التاريخ المصرى، والأمة المتهمة بالموات تنهض فى عنفوان حى يذهل الجميع، ويبدأ عصر الاخضرار والإشراق والأمل.

الثورة من صناعة الشعب الظامىء للتمرد والخلاص، والقيادة والبطولة من نصيب زعيم هو مزيج من الابن المولود والأب الخالق. سعد زغلول ابن مصر المولود وأبوها المعبود، وهو رمز مضىء لبعث الآمال المدفونة، والأهم من ذلك كله أنه ينتمى إلى الفلاحين، ورسالته السامية أن يعيدهم إلى الصدارة ويزيل عكارة طالت حتى أوشكت أن ترسخ صورة نمطية كاذبة عن السلبية المزمنة والرضا بالهوان.

لا ينشغل الحكيم كثيرا بمقدمات الثورة وتفاصيل ما يسبقها من أحداث، فالثورة تبزغ "فجأة" كأنها هابطة من سماء الحلم، والانتفاضة الشعبية العارمة لا تحظى بالكثير من اهتمام الروائى، ذلك أن التركيز الأكبر ينصب على الزعيم–الرمز الذى يقود البعث :"كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به محسن من قبل، ولكنه أحس فى لحظة أن حياته يجب أن تُعطى لهذا الرجل".

لم يكن سعد زغلول قبل الثورة مشهورا معروفا على نطاق واسع، ولعل أحدا لا يعرفه إلا القلة من المهتمين بالسياسة، وهى قلة لا تعبر عن "الشعب" المختزل فى أسرة محسن الشعبية، وبفضل هذا الغموض النسبى تكتمل "فنية" الزعامة الرمزية التى يؤمن بها الحكيم ويتشوق إليها.

إن سعد زغلول ليس زعيما تقليديا يمكن توقعه وانتظاره، لكنه دفقة من الإلهام والعطاء المباغت. رد فعل محسن، الذى ينوب عن الغالبية العظمى من المصريين، يتجسد فى مشاعر حب تفوق الحدود. رجل غير معروف، لكنه يتحول "فجأة" إلى المعنى الوحيد فى حياة ينتظرها تغيير جذرى شامل :"ما غابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار، وإذا أربعة شر مليونا من الأنفس لا تفكر إلا فى شىء واحد: الرجل الذى يعبر عن إحساسها.. والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة؛ قد أُخذ، وسُجن، ونُفى فى جزيرة وسط البحار!!.

كذلك "أوزوريس" الذى نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور، أُخذ وسُجن فى صندوق، ونُفى مقطعا إربا فى أعماق البحار!".

حول "هذا الرجل" تتجمع كل المشاعر والأحاسيس، فهو الرمز المنتظر لتحقيق أحلام الحرية والحياة، وهو "الطبعة العصرية" من "أوزوريس" الذى تحيط به قوى الشر وتحرم المصريين من خيره العميم. سعد زغلول لا يمثل امتدادا لبطولات قريبة تنتمى إلى العصور القبطية والإسلامية، ذلك أنه ينتمى إلى الجذور البعيدة السابقة للتاريخ القريب. زعامة خارقة توحد المصريين وتعيد إليهم مصريتهم، وبفضل هذه المصرية الصافية الخالصة تتراجع الانتماءات الدينية وما قد يصاحبها من توتر وصراع :"كان الناظر إلى القاهرة وشوارعها أثناء ذلك الوقت يرى منظرا عجيبا.. فى وسط المظاهرات والهتافات.. كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رُسم فيها الهلال يحتضن الصليب!.. ذلك أن مصر أدركت فى لحظة أن الهلال والصليب ذراعان فى جسد واحد له قلب واحد: مصر!!".

إذا كانت الرواية تبدأ بـ "الشعب" مريضا متماسكا، فإنها تنتهى به سجينا متماسكا بلا مرض. أفراد الأسرة الواحدة ينتظرون الخروج والعبور إلى عالم جديد؛ عالم تشرق فيه زعامة قادرة على قيادتهم لتحقيق أحلام الحرية والاستقلال والتخلص من الظلام والمظالم.

العاديون من الناس الذين يشعلون الثورة ويضحون من أجلها، قد لا ينالون الثمرة المشتهاة، والذين لم يشاركوا ولم يدفعوا الثمن هم المؤهلون للإفادة وجنى الثمار. مصطفى، بلا تضحيات، يتهيأ للزواج من سنية والاستحواذ عليها :"العقد والتأهيل يوم تهدأ الحالة، بإعادة المنفىّ العظيم إلى مصر الوالهة!.

وهكذا.. قد يتفق يوم خروج محسن ورفاقه من السجن مع يوم زفاف سنية إلى مصطفى!".

هل يظفر الأغنياء الوارثون بمصر التى يضحى من أجلها الفقراء؟، وهل يعود الزعيم من المنفى ليعتمد العقد ويوافق على التأهيل؟.

الزواج لم يتم بعد، والانتظار قائم، والأمر رهين بسعد زغلول الذى يغيب اسمه عن الرواية!.

يسيطر سعد على الفصلين الأخيرين من فصول "عودة الروح"، لكن أحدا لا يذكر اسمه، فكأنه سر مقدس يسمو عن الاقتران بغيره من الأسماء العادية التى لا ترقى إلى مكانته السامية فى قدس الأقداس!.

ابن معبود من صلب االفلاحين، ورجل لم يُسمع عنه من قبل، يعبر عن إحساس وأحلام الملايين. المنفىّ فى جزيرة وسط البحار، شبيه أوزوريس ووريثه المتربع فوق عرش القلوب، صانع بطولات المصريين الخارقة والمسئول عن تضحياتهم غير المسبوقة، مفجر المشاعر النبيلة التى تغيب طويلا؛ كل هذه السمات بمعزل عن اسم الزعيم!.

ينتقل محسن من سنية إلى سعد، ويتم الانتقال بلا إشارة إلى الاسم المقدس :"استحالت كل عواطف التضحية التى كان مستعدا لبذلها فى سبيل معبود قلبه، إلى عواطف تضحية جريئة من أجل معبود وطنه".

لم يكن محسن فى لحظات وجده قادرا على النطق باسم معبودة قلبه، فكيف له أن يتلفظ باسم معبود الوطن؟!

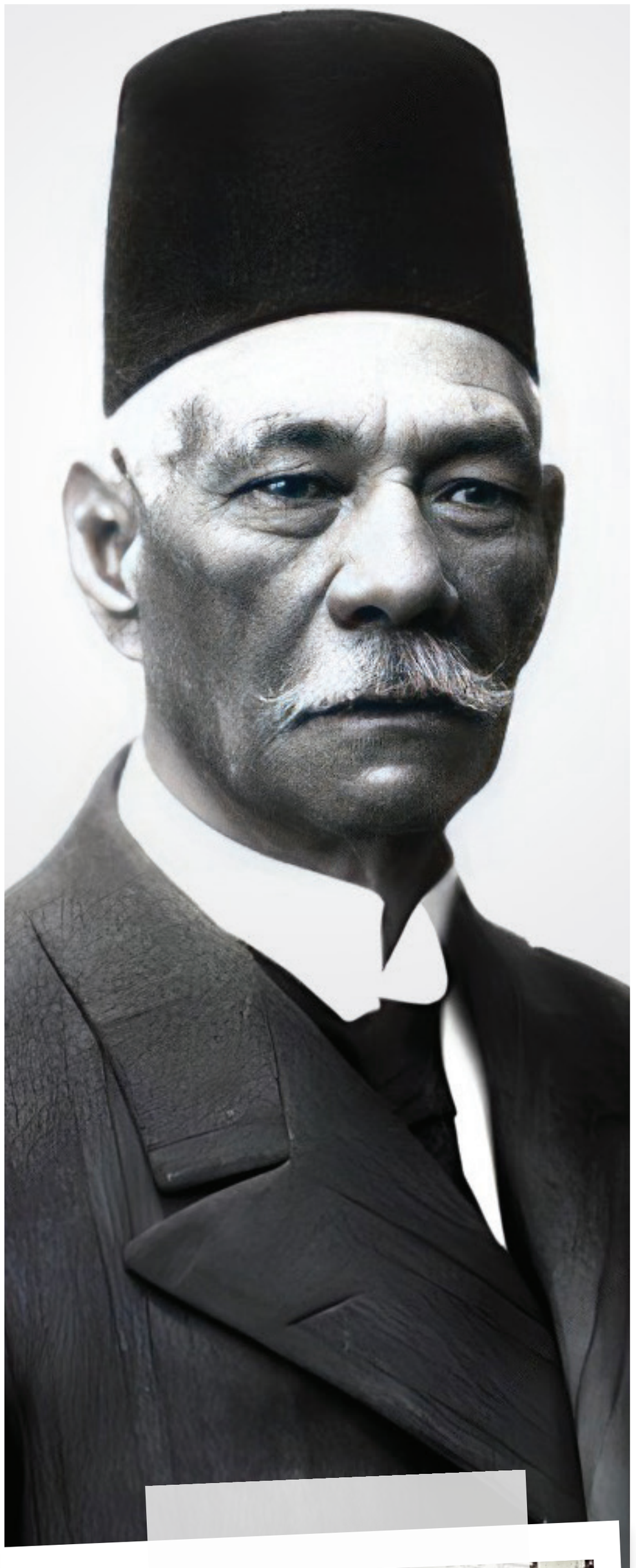

«سعد زغلول ليس زعيما تقليديا يمكن توقعه وانتظاره، لكنه دفقة من الإلهام والعطاء المباغت.تجسد فى مشاعر حب فاقت الحدود»